التكوّن التاريخي
لاصطلاحات البيئة الطبيعية والفلك

أ . د. يحيى عبد الرؤوف جبر
استاذ علمي الدلالة وفقه اللغة بجامعة النجاح الوطنية

تمهيـــد

لا يعرف تاريخ محدد لنشأة ألفاظ اللغة ، وإن أقدم ما نجدها فيه ، هو تلك النقوش التي عثر عليها قديماً وحديثاً في أنحاء متفرقة بين تونس والفرات ، وبين هضبة الحبشة وحلب ، وليست في مجموعها نقوشاً عربية محضة ، ولا تقدم لنا تصوراً واضحاً لتكوّن ألفاظ اللغة ما كان منها لعلاقة بالبيئة أم بغيرها ، وذلك لفقرها وانصبابها في صيغ معينة ، بالإضافة إلى قصرها وعدم التثبت منها .

غير أن منها ما يشير إلى أن بعض ألفاظ البيئة الطبيعية يعود إلى العصر الذي نقشت فيه ، ومن ذلك ما ذكره الهمداني[1] عن نقش باليمن أورد جانباً منه هو« . . . من كريب ذي مأذنم أهل تهامة وطودم» حيث يشير إلى أن كلمة «طود» بمعنى الجبل قد سبقت إلى الوجود ذلك النقش ، ومن ذلك النقش الذي أورده إسرائيل ولفنسون في كتابه تاريخ اللغات السامية[2]« . . . بمقم مراهيمو عثتر شرقا اشمسهو والآل تهمو وباخيل ومقيمت خميس» وترجمته : بمجد سيدهم عثتر المشرق وآلهتهم الشموس وسائر الآلهة ، وبحول الخميس

وقوته . .» أي الجيش وقوته ، حيث جاء ذكر الشمس وأنهم كانوا يعبدونها هي وغيرها من أجرام السماء .

أما الأدب الجاهلي ، فهو أوفى ما يقفنا على تكون تلك الألفاظ في اللغة العربية لوفرته ، وورود ألفاظه في تراكيب مختلفة تمكّن من التعرف إلى دلالتها بالإضافة إلى كثرة الألفاظ التي تنصرف لمسمى واحد ، التي تشترك فيها دلالات مختلفة مما يضع أمام الدارس عدداً ضخماً من الألفاظ التي تصلح لدراسة يخرج منها الباحث بنتائج كثيرة .

والأدب الجاهلي نهر يعرف منتهاه ولا يعرف أوله في الزمان متى كان ، ولكنه يطلق على تركة العرب الأدبية قبل الإسلام ، والأدب بصفته واحداً من أهم الفنون التي تعالج الحياة الإنسانية ، يتأثر بما تتأثر به الحياة ذاتها ، وتظهر فيه العوامل التي تحكم النفس البشرية وتوجه نشاطها ، وأهم تلك العوامل على الإطلاق البيئة بمعناها الشامل ، غير أن ما يعنينا هنا هو جانب يعد أهم جوانبها وهو البيئة الطبيعية ، فإذا رجعنا إلى العصر الجاهلي ودرسنا آدابه فإن ذلك يلزمنا بأن نعي ما كانت عليه بيئة ذلك العصر ، تلك البيئة التي لم تتغير تغيراً ملموساً ، الأمر الذي قد نقف على أبعاده من خلال استقرائنا لحاضر شبه جزيرة العرب الجغرافي ، ومن خلال ما حفظته يد الزمان من أشعار الجاهلية .

شبه جزيرة العرب : نبذة عامة

تقع شبه الجزيرة العربية في الجزء الغربي من قارة آسيا ، وقد كانت قديماً متصلة بإفريقيا حيث كان مكان البحر الأحمر رتقاً ، ثم فتق نتيجة خسف حدث في الزمن الثالث من الأزمنة الجيولوجية[٣] ويحدها من الشرق الخليج العربي وخليج عمان ، ومن الجنوب بحر العرب ، ومن الغرب البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء .

وتغطي الرمال معظم أنحائها متمركزة في مناطق خمس رئيسية هي :

أولاً : صحراء النفوذ الجاثمة في ركنها الشمالي .

ثانيـاً : الربع الخالي ، الذي يترامى في منطقة تمتد من أطراف عسير الشرقية إلى واحة البريمي ، ومن جدة الحراسيس وظفار جنوباً إلى أكناف نجد شمالاً .

ثالثـاً : صحراء الدهناء والصمان ، وهما تمتدان بين الصحراوين السابقتين واصلتين بينهما .

رابعاً : بادية الشام ، وتقع محاذية صحراء النفوذ متوغلة في بلاد الشام .

خامساً : صحراء السماوة ، وتقع شرق بادية الشام ، وتمتد في العراق إلى حد غير بعيد من الجزيرة الفراتية .

وتمتد في غرب شبه جزيرة العرب سلسلة جبلية تنتظم تلك الجهة من أقصاها إلى أقصاها ، تعرف بسلسلة جبال السراة ، وتتصف هذه السلسلة بأنها تزداد ارتفاعاً كلما اتجهت جنوباً ، وأنها تنحدر انحداراً شديداً يشبه الخسف

تجاه الغرب ، حاصرة تهامة بينها وبين البحر الأحمر ، وتتراخى تدريجياً تجاه الشرق ، وهناك سلسلة أخرى تعترض في سرة شبه الجزيرة كالهلال ، تعرف بجبال طويق ، وهناك في الشمال أجبال طي : أجأ وسلمى ومواسل ، وفي قرنها الشرقي الجبل الأخضر من بلاد عمان .

وتغطي الحرات كثيراً من أرجائها ، مما يشير إلى أن براكين كانت قد ثارت فيها ، وذلك في زمن سبق الإسلام ، وانتهى في صدره الأول على نحو سنبينه فيما بعد .

وإذا تناولنا مناخ شبه الجزيرة ، فإننا نجد هناك إقليماً يحاذي البحر الأحمر من مكة إلى عدن ، محصوراً بينه وبين جبال السراة - وهو يعرف بتهامة أو الغور - ويمتاز بارتفاع الحرارة صيفاً إلى درجة عالية مع ارتفاع نسبة الرطوبة ، وباعتداله شتاء ، الأمر الذي يهيىء للمزارعين هناك فرصة مناسبة لزراعة بعض المحاصيل وبخاصة الذرة والدخن ، وتنزل أمطار هذه المنطقة صيفاً وذلك بفعل الرياح الموسمية . وتمتاز المناطق الجبلية بمناخ معتدل صيفاً بارد شتاء . أما بقية أنحاء شبه الجزيرة فمناخها صحراوي بارد شتاء وليلاً ، حار جاف صيفاً ونهاراً ، وقد يكون رطباً وذلك في أسياف الخليج العربي . وتنزل الأمطار على بلاد العرب في الشتاء والصيف ، حيث تنزل على اليمن وجنوب السعودية صيفاً ، وعلى المناطق الشمالية شتاء . ولا يكون نزولها في الشمال غزيراً إلا نادراً ، بل قد يحتبس سنين ، الأمر الذي كان يهدد حياتهم بالخطر .

وتهب على شبة الجزيرة رياح من جهات شتى ، كرياح السموم ، تلك الرياح المهلكة التي تشوي الوجوه بحرارتها وبما تثيره من رمال . ورياح الشمال ، وهي باردة نسبياً ، وريح الصبا ، وهي الشرقية . ولقد كانوا يتغنون بهذه الريح

لرقتها وسهولة مَرّها . وقد مكّن نزول الأمطار بوفرة على جنوب الجزيرة سكان تلك المنطقة المستقلة من إقامة حضارة عريقة تتمثل في مخلفات سبأ وحمير ، الذين بنوا السدود وشيدوا المدن والقصور ، وعمروا البلاد بما لا تزال بقاياه شاهدة على عظمتهم ومدى تقدمهم مما لم يتسن للشماليين الذين لم يعرفوا الاستقرار الاجماعات قليلة منهم كانت تسكن الواحات المتناثرة هنا وهناك . ولما كان المطر قليلاً في معظم أنحاء الجزيرة العربية ،وكانت حياتهم مرتبطة به ارتباطاً جوهرياً ، فقد كان لزاماً عليهم تتبع مساقطه ،والبحث عن مصادر ماء أخرى كالعيون والينابيع ، بل كثيراً ما اضطرهم طلبه إلى ملاحقته في باطن الأرض ، فحفروها واستخرجوا ما ترشح به ، وتلك الحفائر هي ما يعرف بالأحساء والركايا .

ولذا فقد كان عرب الجاهلية دائمي التنقل طلباً للماء والكلأ ، ولقد كان ذلك قدرهم وكان عليهم إما أن يستسلموا للعطش والجوع فالموت ، وإما أن يقهروا هذا الثالوث ، فاختاروا مجالدته فأعياهم طلبه واستمرت الحياة ، فضربوا بذلك المثل الأعلى في الصبر والتحايل لأسباب الحياة .

أثر البيئة في الشعر الجاهلي

لم يكن الشاعر الجاهلي بمعزل عن خضم الحياة الجافة الجافية ، ولم يكن حجراً أمام بيئة قاسية تريد قهره ودقه ، بل تحرك طالباً الحياة ، ولم يُغفل الإشارة في أشعاره إلى ما كان يلقاه في أسفاره من عناء يتجشمه في اجتياز البيد أو ارتقاء الجبال ، وكان يطربه الرعد ويفرحه البرق إذا تشقق عنه السحاب ، وإذا تنزل الغيث تمت فرحتهم وازينت الأرض لعرس الحياة وارتفع

في نواديهم صوت الشاعر واصفاً المطر وآثاره في الديار ، مردداً صوت الشعاب التي سالت بماء السماء فخريرها موسيقا وعيثها صلاح .

ولقد أبرز الشاعر الجاهلي معالم الطبيعة وظواهرها في صور شعرية رائعة مستخدماً لذلك ألفاظاً تنم عن معرفة دقيقة بمدلولاتها ، وسأعرض فيما يلي لجوانب من البيئة الطبيعية تشير إليها أشعارهم ، وذلك لاستظهار مدلولات الألفاظ وتكَوُّنِها بغض النظر عن رأي العلم الحديث في ذلك ، لأن شعراء ذلك العصر لم يتناولوا ظواهر الطبيعة تناولاً علمياً مقصوداً ، وإنما كان ذلك على السليقة ، نظراً لخضوعهم لها خضوعاً تاماً ، لا يستطيعون أن يُفلتوا منها ، ولا أن يؤثروا فيها ، بل كان كل ما في وسعهم أن يلاحظوها ويستنبطوا منها ما يعينهم على مسايرتها ، مما أدى إلى إحاطتهم ببعض قوانين الطبيعة إحاطة نقبلها منهم .

فقد سبق أن قلت إن طبيعة شبه الجزيرة قد فرضت على إنسانها نمطاً خاصاً من أنماط الحياة يعتمد التنقل والرحلة وسيلة تمكنه من ملاحقة أسباب الحياة في الأماكن المختلفة ، وقد ركب العربي لهذه الغاية الليل والنهار والبر والبحر ، تحت سماء صافية بهره ضياء شمسها إذا سرب ، وسحرته بنات الليل وهي تتراقص في بحر السماء إذا أدلج .

١ . الفلك

١ -١ الشمس

ولعل أول ما استرعى انتباهه من الأجرام أم الضياء في السماء وأم الحياة

على الأرض (الشمس) ، بل إن منهم أناساً عبدوها ، ويظهر من تسميتهم لها بالإلهَة ، قالت أم عتيبة بن الحارث :

فَبَادَرْنا الإلهَةَ أنْ تؤوبا[٤]

ويظهر أيضاً في أسماء بعضهم ، إذ جعلوا من أنفسهم عبيداً لها ، قال عبد يغوث :

وتضحك مني شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ كأنْ لم تَرَ قبلي أسيراً يمانيا

فقوله «عبشمية» نسبة إلى «عبد شمس» ، ولعل ورودها مضافة غير معرفة بأل يشير إلى أنها كانت مَعْرفة عندهم ، فلا تحتاج إلى تعريف .

١ - ٢ القمر

وكان للقمر أثر جليل في حياتهم ، فقد «أنِسوا به لأنهم يجلسون فيه للسمر ، ويهديهم السبيل في سُرى الليل في السفر ، ويزيل عنهم وَحشة الغاسق ، وينم عن المؤذي والطارق»[٥] . وقد مكنتهم ملاحظته من معرفة أطواره التي يمر بها من حين يُهل إلى أن يستسر ، ووجدوا تشابهاً بينه وبين الإنسان في ذلك ، فالإنسان يولد صغيراً كالهلال ، ثم يشب فكأنه بدر ، ولايزال يتردى حاله عقب ذلك إلى أن يقضي ، وقد راق وجه الشبه هذا حسّاناً السعدي فقال :

مهما يكنْ رَيْبُ المَنون فإنني أرى قَمَرَ الليلِ المُعَذَّبِ كالفتى

يُهِلُّ صغيراً ثم يعظُم نورُه وصورَتُه حتى إذا ما استوى

تقارَبَ يخبو ضوءُهُ وشعاعُه ويَمْصَحُ حتى يستسرَّ فما يُرى[٦]

كذلك زيدُ المرءِ ثم انتقاصه وتكرارُه في إثْرِه بعدما مضى

قال أبو الحسن : حدثنا أبو العباس أحمد بن يحيى أن هذا الشعر من أقدم ما قيل في الجاهلية .

أما هذه الأبيات فتشير إلى معرفة ناتجة عن ملاحظة طويلة ، غير أنها لا تنفذ وراء ذلك لتقف على علة تلك الأطوار وتفسرها .

وأظن أن حياتهم في ذلك الوقت لم تكن بحاجة إلى مثل هذا النوع من المعارف المتقدمة ، ولو أنهم أعملوا في ذلك أذهانهم لتوصلوا إليه بسهولة ويسر ، هذا إذا لم يكونوا قد توصلوا إلى ذلك فعلاً ، إذ ليس ثم دليل يقوم على جهلهم به .

وقد امتزجت بعض معارفهم بالخرافة ، ويتجلى ذلك فيما كانوا يؤمنون به من أن القمر يختن المواليد ، ومن ذلك قول امرىء القيس يخاطب قيصر الروم :

إنـي حَلَفْتُ يميناً غيـرَ كـاذبـةٍ أنك أَقْلَفُ إلا ما جَلا القَمَرُ[٧]

١ - ٣ الكواكب السيارة

وقد عرف عرب الجاهلية الكواكب الخمسة المتحيرة[٨] ، بل إن منهم من عبد بعضها ، وقدم لها القرابين ، يقول (ولهاوزن) : «إن بعض العرب المجاورين للشام والعراق في القرنين الخامس والسادس الميلاديين كانوا يعبدون الزُّهَرَة ، ويسمونها إذ ذاك العزى»[٩] ، ولهذا القول ما يؤيده ، حيث إنهم كانوا يسمون عبد العزى كما سموا عبد شمس . وقال : «إن تميماً كانوا يعبدون عطارد[١٠]» .

ولقد كان العرب أولى من غيرهم ، وأقدرهم في معرفة أجرام السماء

وتسميتها وحركاتها ، وذلك لأن سماء بلادهم مؤهلة لتمكينهم من ذلك ، نظراً لصفائها واستواء أرضهم من تحتها وجفافها ، بالإضافة إلى موقع الجزيرة العربية ، حيث هو في منطقة تطل عليها القبة السماوية من جميع أركانها . ويؤكد هذا ما نجده حتى الآن من ألفاظ عربية في المعاجم الأوروبية ، هي في الحقيقة أسماء بعض النجوم ، يقول نلينو : «ولا شك في أن عدم معرفة اشتقاق أسماء الكواكب الخمسة المتحيرة ، وعدم وجود ظاهرة مشابهة بينها وبين أسمائها في اللغات السامية والفارسية يدل على أنها قديمة الأصل عند العـــرب»(١١) . بالإضافة إلى عدد كبير من النجوم والدراري اللامعة ، لأن التعرف إلى الكواكب لا يتم دون التعرف إلى النجوم ، حيث إنها لا تمتاز عنها بما يدرك بالمشاهدة القصيرة ، بل إن ذلك يتطلب خبرة طويلة تمكن منه ، مما لا يتم دون معرفة بالنجوم .

وكان للعرب نظر دائم في السماء ، يجوبون بأبصارهم الحادة أقرابها ، ويرصدون حركات أجرامها ودوراتها ، وقد بلغوا في ذلك حداً بعيداً ، فقد عرفوا السها ، وهو نجم صغير خفي جداً ضمن مجموعة بنات نعش الصغرى ، وتُمتحن بإبصاره الأنظار ، بينما لم يكتشفه الغربيون إلا بعد أن عرفوا المراصد وكان ذلك على يد «كوبرنيك» وقد شهدت لهم بذلك أمثالهم قالوا : «أريها السها وتريني القمر»(١٢) . يضرب فيمن يعدل عما يجب تغابياً أو لسوء فهم .

وقد لاحظوا أن النجوم لا تبدو نهاراً ، وذلك لتلاشي ضوئها في ضوء الشمس ، ولذلك كانوا يجعلون إدراك الممتنع كإبصار النجم ظهراً ، قال طَرَفَة :

إنْ تُنَوِّلْـهُ فقـدْ تَمْنَعـهُ ... وَتُريهِ النَّجْمَ يجرِي في الظُّهُر(١٣)

١ - ٤ الأنـــــواء

ولم تقتصر معارف الجاهلية على هذا النوع من الملاحظة ، بل تعدته إلى ضرب آخر أكثر تعقيداً ، يقوم على أسس ثابتة تستند إلى تجارب طويلة ، ومقارنات دقيقة ، ويتمثل ذلك في الأنواء ، حيث عرفوا طبائعها ونجومها ومطالعها وطوالعها ورقباءها وذلك لتحديد مبدئها ومنتهاها ، فالعيّوق رَقيب الثريا تشبيهاً برقيب الميسر ، والعوّاء رقيب فرْغ الدلو الأسفل وهكذا . ورقيب النجم هو الذي يغيب وراء الأفق الغربي إذا طلع هو من المشرق(١٤) . ولقد ذهب العرب إلى أبعد من ذلك حيث نسبوا الأمطار والرياح إلى الأنواء ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون باقتران الحوادث الأرضية بحركات الأجرام السماوية ، وأن هذه الأخيرة هي المهيمنة على مقادير العباد والعلاقات السفلية . ومن ذلك قول أعشى باهلة :

نَعَيْتُ من لا تُغِبُّ الحَيَّ جَفْنَتُهُ إذا الكواكبُ أخطأَ نوءَها المَطَرُ(١٥)

وليس أدل على ذلك من الحديث القدسي الذي رواه النبي ﷺ عن ربه ، قال «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»(١٦) . ومن ذلك قول جميل في أن النجم لا يلتقي هو ورقيبه أبداً :

أحقاً عبادَ الله أنْ لستُ لاقياً بثينةَ أو يلقى الثريا رقيبُها(١٧)؟

١ - ٥ تقويم القرانـــات

وقد كان عرب الجاهلية يعتمدون الشهور القمرية في تحديد مواعيدهم

ومواسمهم ، ولما كانت هذه الشهور غير ثابتة في أماكنها من الزمن ، فقد أدى ذلك إلى انتقالها إلى أوقات تختلف من عام لعام في طبيعة المناخ ، مما كان يؤدي إلى ارتباكهم وجعل حياتهم غير منتظمة . غير أن ذلك قد ألح عليهم لينظروا في وسيلة تمكنهم من ضبط أوقاتهم ، فاهتدوا إلى التوقيت بقرانات القمر في منازله المختلفة ، ولعل أكثر ما ورد في أشعارهم ، هو قرانات القمر مع الثريا ، فاعتمدوها لذلك . وقد لا أكون مبالغاً إن قلت إن اعتمادها وسيلة لتقدير الزمان ومعرفة ما يكون فيه من عادة أنجح من اعتماد التقويم الشمسي . ولا تزال هذه الطريقة مستعملة عند بدو المشرق إلى يومنا هذا ، وأذكر أن القحطانيين الذين يقيمون في الصبيخة من بلاد قحطان جنوب السعودية يعلّمون لتأبير النخل باقتران القمر مع الثريا ليلة السابع من الشهر .

وقال أبو الريحان البيروني في عرب الجاهلية «وكانوا أناساً أميين لم يمكنهم معرفتها - يعني المنازل - إلا بشيء يعاين ، فعلّموا عليها الكواكب الثابتة التي اتفقت فيها ، وجعلوا طلوعها في المشرق بالغداة بعد طلوع الفجر عَلَماً لحلول الشمس فيها . . . ثم قرضوا أشعاراً ، ودونوا فيها التأثير الطبيعي المتناوب الموافق لطلوع كل واحدة منها على ما وجدوه بالتجربة والامتحان ، يسهل حفظها على الأميين ، قال أحدهم :

اذا ما قارن القمرُ الثريا لثالثةٍ فقد ذهب الشتاء»[١٨]

إن مقالة البيروني هذه تبين لنا فضل الشعر في حفظ المعلومات الفلكية والجغرافية ، ويشهد للجاهليين بأنهم قد احتالوا على افتقارهم للمراصد بالكواكب الثابتة للتعليم بها على محالّ الشمس ، وقال الآخر :

إذا ما البدرُ تمَّ مع الثريا أَتاك البْردُ أوَّلُهُ الشتاء[١٩]

وفي البيتين إشارة خفية إلى معرفة العرب بأحوال القمر وأسمائه تبعاً لذلك ، فقد قال الأول «لثالثة» ولذلك قال «القمر» ، أما الآخر فقد استعمل «البدر» لأنه أراد قران الثريا مع القمر ليلة خمس عشرة ، ولذلك خص البدر .

وكان عرب الجاهلية يهتدون بالنجم إذا سَرَوا ، واشتهر أقوام منهم بذلك ، فأصبحوا أعلاماً في هذا المجال ، ومن هؤلاء «بنو شيبان وبنو ماوية ومُرَّة»[٢٠] ، وذلك لما كان لهذا النوع من المعرفة من أهمية عندهم بالغة .

١ - ٦ الكسوف والخسوف

وقد عرف العرب ظاهرتي الكسوف والخسوف ، ولكنهم لم يكونوا يدركون العلة في تينك الظاهرتين ، ولذلك وجدناهم يعتقدون بوجود علاقة بينهما وبين الأحداث الخطيرة التي تحدث على الأرض ، وكانوا يستدلون بحدوثهما على أن عظيماً سيموت ، أو أن دولة ستدول ، غير أن الإسلام أبطل هذا الاعتقاد ، وذلك في قوله ﷺ «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد»[٢١] ، قال ذلك يوم مات إبراهيم ابنه ، وصادف ذلك اليوم كسوف ، فقرن الناس موت إبراهيم بهذا الحدث ، فقام عليه الصلاة السلام وخطب خطبة منها الحديث .

١ - ٧ البروج

كما عرفوا البروج الاثني عشر ، وسموها بأسماء مما تقع أعينهم عليه ، كالحمل والجدي والثور والأسد . ولعل أول من ورد هذا اللفظ في قوله هو قُس ابن ساعدة الإيادي ، أسقف نجران ، وذلك في خطبته المشهورة التي جاء فيها «إن في السماء لَخَبَرا ، وإن في الأرض لَعِبرا ، ليلٌ داجٍ ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رِتاج وبحار ذات أمواج . . .»[٢٢] .

وفي هذه الخطبة ما يدفع أقوالاً لمتقدمين ومتأخرين أنكروا على العرب معرفة البروج ، ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء حيث قال «بروج السماء لم تكن العرب تعرفها في القديم ، وقد جاء ذكرها في الكتاب العزيز»[٢٣] . ومن المحدثين المستشرق الإيطالي نلينو حيث زعم «أن المراد بالبروج السماوية في الآيات القرآنية وبالأبراج في الخطبة المنسوبة لقس بن ساعدة ، إنما هو الصُّور النجومية على الإطلاق ، والنجوم العظام»[٢٤] .

١ - ٨ النسيء والكبس

ومما كان لعرب الجاهلية قسط من العلم به النسيء ، وهو تأخير أحد الأشهر الحرم[٢٥] ، واستحلال القتال فيه ، وإبداله بشهر آخر من شهور الحِلّ . وقد أنكر القرآن الكريم عليهم ذلك ، وجعله زيادة في الكفر . وقد اختلف المفسرون والدارسون في تفسيره ، فذهب بعضهم[٢٦] إلى أنه الكبس وأن العرب قد تعلموه من اليهود ، أو أن يكونوا قد اهتدوا إليه عن طريق التجربة ، وهذا الأخير أرجح عندي ، حيث إن اليهود لم يعرفوا الكبس إلا في القرن السابع الميلادي[٢٧] .

ويروى عن مجاهد أن رجلاً «من بني كنانة - كان - يأتي كل عام في الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس إني لا أعابُ ولا أحابِ ، ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفراً ، ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفراً ، وأخرنا المحرم ، فهو قوله «لِيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ» يعني الأربعة الحرم[٢٨] . قال الشاعر في هذا الكناني :

فـذا فُقَيْمٌ كـان يُدْعى القَلَمَّسا وكـان للدِّينِ لهـم مُؤَسّسا

مُسْتَمَعاً من قولِهِ مُرَأَّسا

وقال آخر :

مُشَهَّرٌ مِـن سـابقي كنانـة　　　مُعَظَّـمٌ مُشَـرَّفٌ مَكانُـه

مضى على ذلك زمانه(٢٩)

ويرى الذين يدَّعون أن النسيء هو الكبس أن اعتماد عرب الجاهلية السنة القمرية كان يربكهم ، وذلك أن العامل الأساسي في حياة الإنسان هو الشمس وليس القمر ، ولذلك فقد كان لهم في النسيء - بمعنى الكبس - فُرجة ينفذون من خلالها إلى التوفيق بين مواسمهم ومواعيدها وحفظها في مكانها من الزمان . قال فخر الدين الرازي في ذلك «إن القوم علموا أنهم لو رتّبوا حسابهم على السنة القمرية فإنه يقع حجهم تارة في الصيف وتارة في الشتاء ، وكان يشق عليهم الأسفار ، ولم ينتفع بها في المرابحات والتجارات ، لأن سائر الناس من سائر البلاد ما كانوا يحضرون إلا في الأوقات الملائمة ، فتعلموا أن بناء الأمر على رعاية السنة القمرية يخل بمصالح الدنيا ، وتركوا ذلك واعتبروا السنة الشمسية ، ولما كانت السنة الشمسية زائدة عن السنة القمرية بمقدار معين(٣٠) احتاجوا إلى الكبيسة ، وحصل لهم بسبب تلك الكبيسة أمران :

١ - أنهم كانوا يجعلون بعض السنين ثلاثة عشرشهراً ، بسبب اجتماع تلك الزيادات(٣١) .

٢ - أنه كان ينتقل الحج من بعض الشهور القمرية إلى غيره ، فكان الحج يقع في بعض السنين في ذي الحجة ، وبعضها في المحرم ، وبعضها في صفر ، وهكذا في الدور حتى ينتهي بعد مدة مخصوصة(٣٢) مرة أخرى إلى ذي الحجة» (٣٣) .

وأرى أن النسيء - بمعنى الكبس - لا يستوجب التحريم كما لو كان بمعنى التأخير الذي هو في الحقيقة تلاعب بقوانين عامة وتحايل على أطراف

المعاهدة التي توصل إليها عرب الجاهلية على نحو ضمني ، بل خداع للنفس يستحق فاعله أن يوصم بأنه يزداد كفراً ، ثم ما هي حاجتهم إلى الكبس وقد كانوا يعتمدون السنة القمرية فيما لا يختلف مع قانون الطبيعة ، وحيث كانت لهم معرفة بالقرانات تمكّنهم من تنظيم حياتهم دونما حاجة إلى تقويم دوري قائم في نظامه على دورة الشمس الظاهرية .

ولهذا فإنني لا أرى أن النسيء هو الكبس ، وإنما هو التأخير ، ويتفق هذا مع ما أورده الرازي في تفسيره من «أن العرب كانت تحرم الشهور الأربعة ، وكان ذلك شريعة ثابتة من زمان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وكانت العرب أصحاب حروب وغارات ، فشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها ، وقالوا : إن توالت ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئاً هلكنا ، وكانوا يؤخرون المحرم إلى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم . قال الواحدي : وأكثر العلماء على أن هذا التأخير ما كان يختص بشهر واحد بل كان ذلك حاصلاً في كل الشهور[٣٤] .

وقد اختلف في الشهور العربية الجنوبية وهل كانت شمسية أم قمرية ، كما اختلف في تعليل أسماء الشهور شماليها وجنوبيها ، قال نلينو : «إننا مع استخراجنا أسماء شهورهم - يقصد أهل اليمن - من تلك الكتابات نجهل ترتيبها الحقيقي وهل هي شمسية أو قمرية»[٣٥] ، ومما ورد في تعليل أسماء الشهور العربية قول البيروني : «إن تسمية المحرم بهذا الاسم لكونه من جملة الحُرُم ، وصفر لامتيارهم في فرقة تسمى صَفَرية ، وشهري ربيع للزهر والأنوار وتواتر الأندية والأمطار ، وهو نسبة إلى طبع الفصل الذي نسميه الخريف ، وكانوا يسمونه ربيعاً ، وشهري جماد لجمود الماء فيهما ، ورجب لاعتمادهم الحركة فيه إلا من جهة القتال ، والرَّجْبَةُ العِماد ، ومنه قيل عَذْقٌ مُرَجَّب ،

وشعبان لتشعب القبائل فيه ، وشهر رمضان للحجارة ترمض فيه من شدة الحر ، وشوال لارتفاع الحر وإدباره ، وذي القعدة للزومهم منازلهم ، وذي الحجة لأنهم يحجون فيه[٣٦] .

فإذا كان هذا التعليل صحيحاً فإنه يعني أن العرب قد وضعوا تلك الأسماء مراعين طباع الشهور في سنة الوضع ، وما يمتاز به كل منها من حرارة أو برد أو مطر ، بالإضافة إلى بعض الأفعال التي كانوا يقومون فيها ، ثم انتقلت من مواضعها في الزمان عشرة أيام كل عام .

١ - ٩ فصول السنة

وكان للعرب علم بالفصول وأحوالها ، ففصل الربيع شباب الحياة وفيه يكون الإنبات والصيف من بعده نذير بنهاية العام ، ونقلوا ذلك إلى طبع الإنسان ، فقالوا للرجل إذا وُلد في أول سنة قد أربع وولده ربعيون ، فإذا تأخر ولده إلى آخر عمره قالوا : قد أصاف فلان وولده صيفيون ، وهو مصيف . ومن ذلك قول الشاعر :

إن بنيَّ غِلْمَةٌ صيفيون أفلح من كان له رِبعيّون[٣٧]

وسموا كل فصل بما يكون فيه من علاقة ظاهرة سواء في طبعه أم في ما اعتاده الناس فيه من نشاط ، ففصل الربيع مسمى بارتباع الناس فيه ، وتوقفهم عن الرحلة طلباً للماء والكلأ ، والصيف مسمى بزوال البرد وميل طبع الزمان إلى الدفء ، من قولهم : «صاف السهم» ، إذا عدل عن الرميّة وأخطأها ، والخريف مسمى بالخرفة ، وهي الرُّطَب ، وهي خُرفة لأنها تُخترف أي تقطف وتقطع ، أي لأنه موسم الخرف وجني النخل ، وسموا الشتاء لأنه موسم البرد والمطر ، حيث ينصرف الأصل (ش ت و) إلى دلالة تقع على معنى الشرب وعلاقته بالماء .

٢ - المنـــاخ

كان لطبيعة مناخ الجزيرة العربية أثرها البالغ في تصريف حياة سكانها ، فهو مناخ جاف حار في بعض المناطق ، ورطب خانق في مناطق أخرى ، وبارد نسبياً في المناطق الجبلية ، وأمطار الجزيرة قليلة قد تحتبس عن بعض المناطق أعواماً ، مما دفع كثيراً من القبائل إلى الارتحال وطلب الحياة في الأقاليم المجاورة ، مما كان يتحكم في الكثافة السكانية والتوزيع السكاني في المنطقة بأسرها . فقد جاء في الأغاني «أن بطوناً من خزاعة خرجوا جالين إلى مصر والشام لأنهم أجدبوا»[٣٨] ، وقد تفرقت ربيعة في البلاد فسارعت عنزة بن أسد ابن ربيعة تتبع مواقع الغيث وتقدمها عبد العزى بن عمرو العنزي[٣٩] .

ولا شك في أن تقلبات المناخ من أهم العوامل الطبيعية التي تفرض الهجرة على الإنسان ، وخاصة إذا توالت سنين القحط ، يقول سليمان حزيّن «إن السبب الأول في هجرة القبائل اليمنية يرجع إلى تغير مناخي»[٤٠] ، وليس لانهيار سد مأرب بالدرجة الأولى ، ونجد أن هذه الظاهرة قد حدثت في أماكن مختلفة من العالم وأدت إلى هجرات وقلاقل كثيرة ، يقول R. A. S. Macalisters ، «وقد أظهرتنا الأبحاث التي قام بها روفائيل بمبلي Pumpelly في أماكن من أعمال تركستان على ما كان لهذا الجدب من حظ في حركات الأقوام في الماضي السحيق ، مما أدى إلى شيوع القلاقل في أوروبا في كثرة تجوال الشعوب Volker Wanderunger»[٤١] .

وقد عانى عرب الجاهلية من جراء ذلك عناء شديداً ، فكأنهم في رحلة لا تُلقى فيها الرحال «حيث إن القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو قاعدة متقلقلة»[٤٢] «وإن كل جانب من جوانب الحياة البشرية في الصحاري يحمل

طابع التحرك»[٤٣] ضرورة لا اختياراً ، فالناس يوماً هنا وآخر هناك ، والمواشي في حركة أبدية ، والرمال تزعزعها الرياح ، فهي كثبان تارة ، وبساط تارة أخرى ، ومن هنا كره البدو الاستقرار «واحتقروا الزراعة»[٤٤] لأنها ستؤدي بهم إلى الاستقرار ، ونظروا إليها على أنها من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو الذين يقيمون في الأرياف والهِجَر تاركين حياة المجالدة والنصب إلى أخرى يربأ معظم البدو بأنفسهم عن الخلود إليها .

٢ - ١ البـــرق

ولما كان جل اعتمادهم على المطر الذي يشربون منه هم وحلالهم ، وبه تُمرع مسارح إبلهم ومواشيهم ، فقد عرفوا مواسمه وأنواءه ، كما عرفوا مخائل السحب بالشوم ، واسترعاهم البرق ، وأطربتهم هدهدة الرعود ، فكانوا إذا ما رأوا سحابة في جانب الأفق يقعدون لها يرقبونها ، هذا يقول مُخيلة ، وذاك يقول نرجو أن تصيبنا أوشال من قطرها ، قال شاعرهم[٤٥] :

تَبَصَّر هـل تـرى ألـواح بـرقٍ   أوائلـه على الأَفْعـاةِ قـودُ
قعدت لـه وشايعني رجـالٍ   وقـد كَثُرَ المَخايلُ والسـدودُ

إذ يشير البيت الثاني إلى أن الشاعر كان في جماعة من صحبه يراقبون البرق في وقت كثرت فيه السحب الخليقة للمطر ، والسدود الكثيفة - السحب - التي تسد الأفق .

وقد عرض كثيرون من شعراء الجاهلية في قصائدهم للمطر ، فوصفوه وصفاً دقيقاً ، وتغنوا بآثاره في الأرض ، ويحدثنا امرؤ القيس في معلقته عن مطر غزير أصاب شمال الجزيرة العربية ، فيقول :

أحـارِ ترى برقـاً أُريكَ وميضَـهُ   كَلَمْعِ اليـدين في حَبِيٍّ مُكَلَّـلِ

قعدت له وصُحبتي بين حامرٍ وبين إكامٍ بعد ما مُتأَمَّلِ

واضحى يسحُّ الماء في كلِ فيقَةٍ يَكُبُّ على الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

وما هي إلا بُرهة حتى اجتمعت مياه الشعاب في سيل جُبارٍ دهم تيماء فاقتلع نخيلها وهدم قصورها ، إلا ما بُني منها بالجنادل قال :

وتيماء لم يَتركْ بها جذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطماً الا مَشيداً بجَنْدَلِ

ثم انتقل بعد ذلك يوضح لنا في صورة حسية رائعة أثر المطر في الأرض ، وكيف استقبلته مشبهاً إياهُ بالتاجر اليماني الذي اشتهر عندهم ببيع البرود والملابس الملونة فقال :

وألقى بصحراءِ الغبيطِ بُعاعَهُ نُزولَ اليماني ذي العِيابِ المُخَوَّل[٤٦]

فقد نتج عن هذا المطر أن نبتت الأعشاب ، وازدانت بوشي من أزهارها ، فإذا الأرض بساط كبير ملون كتلك الأكسية التي يعرضها التجار اليمنيون ، ولم تكن الفرحة بالمطر مقصورة على الإنسان ، بل تعدته إلى الطير ، حيث جعل امرؤ القيس مَكاكِيَّ الجُواء كانما «سُقين سُلافاً من رحيق مفلفل» ، فهي سكرى بماء السماء .

ويحدثنا عروة بن الورد عن سحاب أرق لبرقه وأخذ يراقبه ، فإذا ما دنا من «قديد» وأوشك أن يمطر ، أمسك وحارَ عنه إلى مكان آخر قال :

أرقتُ وصحبتي بمضيقِ عَمْقٍ لبرقٍ في تهامةَ مُستطيرِ

اذا قلت استهلَّ على قَديدٍ تَحورُ رَبابُهُ حَوْرَ الكسيرِ[٤٧]

وتشير الأبيات السابقة إلى ما كان عليه عرب الجاهلية ، فقد كانوا يقعدون للبرق ينظرون فوق أي الأماكن يتلألأ ، فإذا «لمعت سبعونَ برقةً انتقلوا

ولم يبعثوا رائداً لثقتهم بالمطر[٤٨]» وكذلك يفعلون إذا كان البرق وليفاً ، أي يلمع لمعتين لمعتين ، وهو ثقة للمطر . قال صَخْرُ الغَيّ في امرأة يؤمل أن توافيه :

لشماءَ بعدَ شتاتِ النوى وقد بِتُّ أُخْيِلْتُ بَرْقاً وليفا[٤٩]

٢-٢ المطر والسحاب

يالها من خيبة أمل حيث يرجو القوم المجدبون نزول المطر ، فتصرفه الرياح عنهم إلى قوم آخرين ، مما كان يضطرهم إلى شد الرحال طلباً له ، كما كان يؤدي إلى نشوب القتال بينهم في كثير من الأحيان ، «ففي فترات الجدب يصبح التناحر على البقاء أشد وأقسى ، أما في فترات الخصب فالأمر على نقيض ذلك»[٥٠] .

وقد كان ذلك شأن العرب في الجاهلية ، وتحدثنا كتب التاريخ عن كثير من الأيام التي شهدت تصارعهم ، بل كانوا لا يُسلمون جيرانهم من أذاهم ، فقد «كانت قبائلهم ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد تهاجم أرض ما بين النهرين وبلاد الشام ، وتُكوّن مصدر رعب للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وكانت تنتقل في هذه البادية الواسعة لا تعترف بفواصل ولا بحدود ، فتقيم حيث الماء والكلأ والمحل الذي يلائم طبعها»[٥١] .

وكما تغنى شعراء الجاهلية بالمطر ، فقد تغنوا بالسحب التي يتنزل منها المطر ، فعرفوا أنواعها وطبائعها ، وكان يفرحهم منظرها وهي تسد عليهم الأفق ، ولذلك فلا عجب أن نجد منهم من سمّى ابنته باسم من أسماء السحب كالرَّباب ، والمُزَنة[٥٢] ، بل لقد وصفوا السحاب بأوصاف لا تكون إلا للعيون الجميلة ، ومن ذلك قولهم «أوطف ووطفاء» من الوطف ، وهو استرخاء في العين وفتور مع طول الأهداب وغزارتها ، قال ضابىء :

يوائلُ من وطفاءَ لم يَرَ ليلةً اشدَّ أذى منها عليه وأطولا[٥٣]

وقال امرؤ القيس :

وغيثٍ كألوانِ الفَنَا قـد هَبَطْتُـهُ   تعاورَ فيه كلُّ أوطَفَ حنـّانِ[٥٤]

كمـا شبهوا الحسـان بما رَقَّ منه وظللهم في الصيف ، وفي ذلك يقول طَرَفة :

كبناتِ المَخْرِ يَمْأَدْنَ كمـا   أنبَتَ الصيفُ عساليجَ الخَضِـرِ[٥٥]

وبناتُ مخر أو بخر سحائب بِيض يأتين قبلَ الصيفِ رقاقٌ لا تمطر . وقد كان للعرب علم بأحوال السحاب وطباعه ، فعلموا أن سحب الصيف سرعان ما تتلاشى ، وذلك لشدة الحر ، ويشهد بذلك مثلهم القائل «سحابة صيف عما قريب تنقشع» ، وقد لاحظوا أن السحب إذا أراقت ماءها خفت وأسرعَ جريُها ، لأن ذلك يُسهل على الريح سوقَها ، فشبهوا بها الناقة في سرعتها ، قال امرؤ القيس :

تروحُ إذا راحت رَواحَ جَهامَـةٍ   بإِثْرِ جَهامٍ رائـحٍ مُتَفَـرِّقِ[٥٦]

والجهام السحاب اذا أراق ماءه واعتصره ، وقوله : رائح متفرق ، يعني أنه لم يَلْقَ فيه ما يمطره ، لأن السحاب يجتمع إذا تهيأ للمطر ، ويتفرق قِطَعاً إذا كَفّ ، ويؤكد هذا البرقُ ، فهو لا يكون إلا إذا احتكت سحابتان مختلفتا الشحنة ، وهو غالباً ما يكون مصحوباً بالمطر .

وإذا كانت السحابة لا تزال تقل ماءها فإنها تكون ثقيلة بطيئة الحركة ، فكأنها سُلَحْفاة تحبو حبواً ، ومن ذلك قول امرىء القيس :

... كَلَمْعِ اليدينِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ[٥٧]

ومن عادة الإنسان إذا شبه ،أن يختار المشبه به من بيئته ، وغالباً ما يكون للمشبه به دلالة أصلية أو هامشية عنده تؤثر فيه ، ومن ذلك تشبيه الجاهليين الجمع الكثير من الناس بالعارض ، وذلك أنه يسد الأفق وكأن الناس في كثرتهم يغطون الأرض ، قال المهلهلِ :

اذا اقبلَتْ حميَرُ في جَمْعها ومَذْحِج كالعارضِ المُسْتَحيقِ
تَلْمَعُ لَمْعَ الطيرِ راياته على آواذيّ لجٍّ بَحْرٍ عميقِ(٥٨)

ولعل أشعر من وصف المطر امرؤ القيس ، فقد حدّث الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سأل ذا الرمة فقال : أي الشعراء وصفوا الغيث أشعر؟ فقال : امرؤ القيس ، قال أبو عمرو فأنشدني قوله :

ديمةٌ هطلاءُ فيها وَطَفٌ طَبِّقُ الأرضِ تجري وتَدُرْ
تُخْرِجُ الوَدَّ إذا ما أشْحَذَتْ وتُواريه إذا ما تَشْتَكِرْ(٥٩)

٢ - ٣ الرياح

ولما كانت الرياح موكلةً بالسحب تسوقها في هذا الاتجاه أو ذاك ، وتسيّر السفن أو تُسْلِمُها للأمواج المدمرة ، ولما كانت عاصفة محملة بالرمال أحياناً وباردة ليلاً ، أو نسيماً عليلاً أحياناً أخرى فقد كان لهم بأحوالها ومهابّها علم غزير ، وذلك لما لها من أثر حسن في جانب منه ، وسيىء في الجانب الآخر ، فوصفوها في أشعارهم وبيّنوا طبائعها وأسماءها وتغنوا بما هب منها نسيماً عليلاً يلطّف أجواء بواديهم إذا التهبت رمالُها في القيظ . جاء في الأمالي «أن رجلاً من أهل تهامة تزوج امرأة من أهل نجد فأخرجها إلى تهامة فلما أصابها حرها قالت ، ما فعلت ريح كانت تأتينا ونحن بنجد يقال لها الصَّبا؟ قال يحبسها عنك هذان الجبلان ، فأنشدت :

أيا جَبَلَيْ نَعمانَ باللهِ خلّيا نسيمَ الصَّبا يَخْلُصْ إليَّ نسيمُها
أجدْ بردَها أو تَشْفِ مني حرارةً على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صَميمُها
فإنَّ الصبا ريحٌ إذا ما تَنَسَّمَتْ على نَفْسِ مهمومٍ تَجَلَّتْ هُمومُها(٦٠)

وقال عُبيدُ الله بنُ الدُّمينة :

ألا يا صبا نجدٍ متى هِجْتِ من نجدِ لقد زادني مَسْراكِ وجداً على وجد[٦١]

وتبين هذه الأبيات تعلقهم بتلك الريح ، فهي تجلو هموم النفس وتذكر الإنسان بالأحبة فتزيده وجداً على وجده ، وهذه الريح تهب من المشرق ، وذلك استناداً إلى ما ورد في أشعارهم ، ومن ذلك قول أبي صخر الهُذلي :

إذا قلتُ حين أسلو يُهَيِّجُنِي نسيمُ الصبا من حيثُ يَطْلُعُ الفجر[٦٢]

ومطلع الفجر من المشرق ، وتقابلها ريح الدبور ، فالصبا مغربة وهذه مشرقة ، قال الشاعر :

أتاني نسيمٌ من صَبَاً بتحيـــةٍ فَحَمَّلْتُ مثلَها نسيمَ الدبـــورِ[٦٣]

وقد ركب عرب الجاهلية البحر ، وبخاصة أولئك الذين كانت منازلهم على السواحل ، وكانوا يعتمدون في إبحارهم إحدى وسيلتين هما التجديف وقوة دفع الريح ، ولهذا فقد كانوا يتحينون فرص هبوبه في الاتجاهات التي ينوون الإقلاع إليها . قال ضابىء بن الحارث يصف تَدافُعَ ناقته بأنه مثل :

تدافع غسّانيةٍ وَسطَ لُجَّـــةٍ إذا هي هَمَّتْ يومَ ريحٍ لتُرْســـلا[٦٤]

فقد شبهها في جريها بسفينة منسوبة إلى غسان تجري مسرعة لأن الريح تسوقها ، وقد ذهب بعض شعراء الجاهلية إلى أبعد من ذلك ، حيث دللوا على اتجاه سيرهم بذكر الريح التي تحدوهم ، فريح الشمال تتجه جنوباً ، والصبا غرباً والسموم شمالاً ، ومن ذلك قول لبيد :

وغداةَ ريحٍ قد وَزَعْتُ وَقَـــرَّةٍ إذا أصبحتْ بِيَدِ الشِّمالِ زِمامُها[٦٥]

إذ شبه ريح الشمال برجل ممسك بزمام ناقته يقودها نحو الجنوب .

ومن الرياح التي تهب على شبه الجزيرة العربيةشتاء ، وتفرض على سكانها حصاراً شديداً حول المواقد ، ريح يسمونها «الحَرْجَف» ، وهي ريح شآمية باردة شديدة ، ومهبها بين الصبا والشمال ، أي من الشمال الشرقي ، قال المُتَنَخَّل الهُذَليّ :

إذا ما الحَرْجَفُ النكباءُ ترمِي بيوتَ الحَيِّ بالوَرَقِ السِّقاطِ(٦٦)

وقوله النكباء ، لأنها تهب من جهة فرعية ، وكل ريح تهب من بين جهتين فهي نكباء لأنها تَنَكَّبت هذه الجهة ، وتنكبت الأخرى أي حادت عنهما . وأكثر العرب تجعل الجنوب هي التي تنشىء السحاب بإذن الله عز وجل وتستدره ، وتصف بواقي الرياح بقلة المطر ، وبالهبوب في سني الجدب ، قال أبو كبير الهذلي :

إذا كانَ عامٌ مانعُ القطرِ ريحُهُ صباً وشمالٌ قَرَّةٌ ودَبُورُ(٦٧)

إذ يشير البيت إلى أن هذه الرياح الثلاث لا يكون معها مطر ، فالمطر إذن مع الجنوب ، وقول عدي بن زيد يؤكد هذه العلاقة . قال :

وهَبيّ بعدَ الهُدُوْءِ تُزَجّيه شَمالٌ كما يُزَجّى الكَسيرُ

فاستدرتْ به الجنوبُ على الـ حَزْنَةِ فالحِنْوِ ، سَيْرُهُ مقْصورُ(٦٨)

وقال حُمَيْدُ بن ثور :

ليالِيَ أبصارُ الغواني وسمعها إليَّ وإذْ رِيحى لَهُنَّ جَنُوبُ(٦٩)

إذ تشير الأبيات إلى أنهم كانوا يتيمنون بالجنوب ويجعلونها مثلاً للخير ، قال مؤرج السدوسي : «من خواص الجنوب أنها تثير البحر حتى تسوّده ،

وتظهر كل ندى كامن في بطن الأرض حتى تلين الأرض ، وإذا صادفت بناءً بني في الشتاء والأنداء أظهرت نداه ، وحتته حتى يتناثر وتطيل الثوب القصير ، ويضيق لها الخاتم في الإصبع ، وَيسْلُس بالشمال ، والجنوب تسري بالليل . تقول العرب : «إن الجنوب قالت للشمال إن لي عليك فضلاً ، أنا أسري وأنت لا تسرين ، فقالت الشمال : إن الحُرَّة لا تسري»(٧٠)

ومن تلك الرياح الشَّفَّان ، وهي ريح باردة يكون فيها شيء من الرذاذ ، قال امرؤ القيس :

ما ذاك أشهى ليلةً من ريقها ... في ليلةِ الشَّفَّانِ والقَرسِ(٧١)

والقرس هو البَرَد .

٢ - ٤ الرعد

وقد أطرب عرب الجاهلية قصف الرعود ولمعان البرق ، فكأنهما معزوفة موسيقية ولوحة فنية تقدمها السماء للأرض ، فرسموا من هذه وتلك صوراً بيانية رائعة استمدوا خيوطها وأصباغها من أثرهما في النفس الذي تعكسه عليهم فرحتهم بالمطر ، ولكن قصف الرعود قد يحتد فيثير الرعب كأنه زئير الأسد ، قال عروة :

كأنَّ خَوَاتَ الرعدِ رِزُّ زَئيرِهِ ... من اللاءِ يَسْكُنَّ الغَرِيفَ بِعَثَّرا(٧٢)

وقد عرفوا للرعد أسماء كثيرة ، فاشتقوا من بعضها ما أطلقوه علماً على النجم الذي يصاحب طلوعه رعد كثير ، ومن ذلك قوله (المِرْزَمان) ، وهما نجمان من مجموعة الدب الأكبر ، وأصل الإرزام صوت الناقة ، ثم أطلقوه على صوت الرعد ، قال منقذ بن الطماح الأسدي :

لَجْبٌ إذا ابتَـدروا قنابِلَــهُ   كنشـاصِ نَـوْءِ المِرْزَمِ السَّجْـمِ[٧٣]

ولذلك قال السجم أي كثير التهطال ، لأنه كثير الرعود .

٢ - ٥ الحـر والبـرد

ويعد الحر والجدب أظهر ما عُرفت به جزيرة العرب منذ القدم «إذ تقع كلها تقريباً داخل نطاق الحرارة القصوى الذي يطوّق العالم في شهر يوليو»[٧٤] وهذا يقابل في تقويمهم المدة التي تقع بين خامس أيام نوء الطرف و ثالث أيام نوء الزبرة ، وتكون الشمس أثناء ذلك في برج الأسد ، وتكون أشعتها عمودية على معظم أنحاء الجزيرة الجنوبية ، فتجف الغدران ، وتذوي الأعشاب ، وتغور المياه ، وقد عانى العرب من الحر والجفاف عناء شديداً ، وفي شعرهم صور تبين ذلك ، فهذا امرؤ القيس يفاخر بناقته التي تنجو من الحر اللافح وذلك حيث يقول :

اذا أَحْجَرَ الظِّلَّ الوَدِيقةُ أَرْقَلَتْ   برحـلِيَ جِلْعابُ النَّجاءِ أَمـونُ[٧٥]

والوديقة أي شدة الحر ، أحجرت الظل أي قصرته ، وهذا يعني أن الوقت كان ظهراً عندما يقصر الظل . وحيث يقول أيضاً :

مَروحُ السُّرى عَبْرَ الهواجِرِ لم يَسُفْ   بِفَيْحانَ منها القادِمينَ جَنينُ[٧٦]

يفاخر بأنها إذا تَلَع النهار ورَمَضَت الأرض لا تبالي بذلك .

وهذا لا يعني أن الجزيرة حارة دائماً ، «فدرجة الحرارة تنخفض فوق المرتفعات جنوب مكة إلى درجة يتكون معها الجليد في ليالي الصيف»[٧٧] ، ولقد كانوا أقوى على تحمل الحر منهم على تحمل البرد ، وخاصة إذا كانوا

مجدبين - وما أكثر ما كانوا كذلك - فلا تعود أجسامهم النحيلة تقوى على تحمله ، ولا تجود مراعيهم بما يدر الألبان في الضرع والخِلف ، فتثقل حركتهم ، ويخلدون إلى نمط من الحياة كئيب ، أشبه ما يكون بدور البيات الشتوي ، ولذلك فقد كانوا يفاخرون بالإطعام في تلك الحالات ، ولما كان الجدب يحدث في الشتاء غالباً ، فقد اشتقوا من الشتاء ألفاظاً وصفات أطلقوها على الحال ، وذلك لشدة وطأته عليهم ، فصوروا الشتاء والجدب ، كحليفين لا انفصام لما بينهما ، فقال حسان :

وأنا من القوم الذين إذا أَزِمَ الشتاءُ محالفَ الجَدْبِ

أعطى ذوو الأموالِ مُعْسِرَهُم والضاربين بموطِنِ الرُّعْبِ[٧٨]

ومن ذلك قول طَرَفَة مفاخراً :

نحن في المشتاةِ ندعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ منّا يَنْتقرْ[٧٩]

يفاخر بأن قومه في المشتاة لا يَدْعون أفراداً ويَدَعون آخرين ، بل يعممون الدعوة ، وذلك لأنهم كرماء ، وهذه حالهم في كل فصول السنة ، ومن أقوالهم في الشتوات كناية عن الجدب قول كعب بن سعد الغنوي :

أخو شَتَواتٍ يعلَمُ الضيفُ أنَّه سَيُكْثِرُ ما في قدرِهِ وَيَطيبُ[٨٠]

من قصيدة يرثي أخاه ، وقد جعله أخاً للشتوات ، والمعنى أنه أخ كريم للناس ، إذا نزلت بهم أزمة فإنه يكرمهم بنفس طيبة ، ومن ذلك قول ضابىء البرجمي يمدح قومه :

عَهِدْتُ بها فتيانَ حربٍ وشَتْوَةٍ كراماً يَفُكُّونَ الأسيرَ المكبلا[٨١]

حيث أضافهم للصعاب وجعلهم رجالها القادرين على مطالبها من بأس في الحرب وإكرام في الجدب .

٢ - ٦ السنـــة (الجـــدب)

وقد يطول زمان الجدب فيمر بطيئاً كليل المهموم ثقيلاً ينوء بالجبال ، فيخالج اليأس والقنوط نفوسهم ، فيسخطون على ذلك الزمان وكأنه العلة فيما نزل بهم ، ونظراً لتوالي تلك الحال على نحو يكاد يكون متصلاً فقد أطلقوا الجزء من الزمان على ما يقع فيه ، فكما أطلقوا اسم الشتوة والمشتاة على الجدب ، فقد أطلقوا عليه اسم السنة واشتقوا منها قولهم : «أسنت القوم فهم مسنتون إذا أجدبوا» قالت امرأة من بني عقيل تفخر بأحد أخوالها من اليمن :

يأكلُ أزمانَ الهُزالِ والسِّنيّ

هَنَاتِ عَيْرٍ ميّتٍ غيرِ ذكيّ[٨٢]

تعني أنه يأكل ذكر العير ، فكنت عنه لأنها امرأة ، وفي هذا ما يبين الحال التي يؤولون إليها إذا أجدبوا ، وقال آخر :

عمرو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومـــِه ورجالُ مكةَ مسنتونَ عِجـــاف[٨٣]

يعني أن عمرا أكرمَ قومَهُ في وقت كان فيه أهل مكة مجدبين ، وأنت ترى أن في البيت فخراً بالإطعام في يوم ذي مسغبة . وقال أبو دؤاد الإيادي :

وَسِماحٌ لدى السنين اذا مـــا قَحِطَ القَطْرُ واستقلَّ الرّهـــامُ[٨٤]

يريد أن قومه لا يبخلون إذا قحط الناس واحتبس الغيث . وقد عبروا عن الجفاف باستخدام أساليب تنم عنه ، كقولهم «ظمأى الريح» إشارة إلى أن

الريح جافة ليس فيها من بخار الماء شيء ، وذلك لأنها لا تمر إلا من فوق رمال ألهبتها الشمس ، ولا شجر ولا نبت يزودها بنتحه فتندى ، قال سوّار بن المُضَرَّب :

رمى بلدٌ به بلداً فأضحى بظمأى الريحِ خاشعةِ القِنانِ[٨٥]

يعني : بأرض ظمأى الريح وخاشعة القنان أي يابسة لم تمطر .

٢ - ٧ السراب

ونظراً لارتفاع الحرارة وترامي البقاع المسطحة ، فقد كثر حدوث ظاهرة السراب في الجزيرة العربية ، ولا شك في أنه كان يغري من تقدمهم وأناساً منهم ، ولكنهم عرفوا طبعه وخداعه وأسموه أسماء مختلفة مشتقة من صفاته ، ومنها الخيدع لخداعه ، والملمع واللماع واليلمع للمعانه ، والخفّاق لما يظهر فيه من وجيب وتماوج ، وكما أسموه آلاً وغيره ، قال امرؤ القيس :

كأنَّ رحى حيزومِها في مُلَمَّعٍ لـه خلفَها لمّا اتلأبَّ سفينُ[٨٦]

يريد أن صدر الناقة يُرى عند ارتفاع السراب - الملمع - كالسفينة ، وذلك لأن السراب يرفع الشخوص فيكون هو من تحتها كلجة ماء ، وقال في الآل :

فَشَبَّهْتُهُم في الآلِ لما تَكَمَّشوا حدائقَ دومٍ أو سفيناً مُقَيَّرا[٨٧]

فقد شبه ظُعْنَ الحي حين أسرعوا في السير بحدائق الدوم ، لما في هوادجهم من الألوان المختلفة ، كما شبههم بالسفين لسيرهم في السراب ، كسير السفين في الماء ، وقال سَوّار بن المُضَرَّب :

وإنْ غَوَّرْنَ هـاجرةً بِفَيْـــفٍ كـأنَّ سرابَها قِطَعُ الدُّخـانِ(٨٨)

ومفهوم السراب في هذا البيت مضطرب ، لأنه لا يكون كقطع الدخان إلا إذا حصر الشبه في أن كليهما يحجب المناظر ويحول بين العين والرؤية الحقيقية ، وفي أن كليهما يشبه في لونه البخار ، فالسراب يبدو صقيلا ، بينما يبدو الدخان أحرش غير مستو ، ولعله كان يقصد القتام الذي يظهر فوق المناطق المنخفضة اذا أشرفت عليها ، وذلك القتام يَكْثُف في الهاجرة لفعلها في نداوة الأرض وإثارتها بخاراً شبيهاً بالضباب لولا اختلاف العامل في كليهما .

٢ - ٨ النـــدى

ومن الظواهر الطبيعية التي ألفها عرب الجاهلية الندى ، وهو قطرات الماء تتكون على الأرض وعلى أوراق الشجر من جراء هبوب أنسام باردة آخر الليل ، فيكاثف ما فيها من بخار لاختلاف درجة الحرارة في كل من النسيم والأرض التي تكون أدفأ نسبياً ، نظراً لارتفاع حرارتها النوعية ، وقد علّموا بوقته على التبكير ، قال خفاف بن نُدْبة :

يصيدُكَ العَيْرَ بِـرَفِّ النَّـــدى يَحْفِرُ في مُبْتكِـرِ الراعـــدِ(٨٩)

يريد أن حصانه يمكّنه من اصطياد حمار الوحش في وقت مبكر من النهار ، عندما يكون الندى رفيفاً وتلألؤا في الشمس ، وقال الأسْعر الجُعْفيّ :

باتتْ شآميةُ الرياحِ تَلُفُّهُـــم حتى أتَوْنا بعدَما سَقَطَ النـــدى(٩٠)

وذلك في آخر الليل ، وربما تجوّز بعضُ الشعراء فاستعمل الندى مكان المطر ، وذلك لعلاقة المشابهة ، قال امرؤ القيس :

وقد اغتدي والطيرُ في وُكُناتِها وماءُ الندى يجري على كُلِّ مِذْنَبِ[٩١]

وذلك حيث إن المذنب مسيل الماء إلى الروضة ، والندى لا يكون من الكثرة بحيث يسيل .

٢ - ٩ الصقيـــع

ومن تلك الظواهر الصقيع ، وهو الندى يشتد البرد فيجمد ، وفي ذلك يقول أعشى باهلة :

وأحْجَرَ الكلبَ موضوعُ الصقيعِ به وألجأَ الحيَّ من تنفاخِهِ الحَجَرُ[٩٢]

والضريب مثله ، وكلاهما يُهلك الزرع ويخفض الحركة ، قال حسّان :

إذا ما الكلبَ أَحجَرَهُ الضريبُ . . .[٩٣]

وقولهما «أحجر» يعني أن الكلب يلزق بمكانه لا يتحول عنه ، فكأنه حجر لا حراك فيه ، وذلك لشدة البرد والصقيع الذي يغطي وجه الأرض إلا ما كان مغطى .

٣ - التضاريـــس

تمتاز جزيرة العرب بتضاريس فريدة نستطيع استقراءها من خلال أشعار الجاهلية ، فقد جاءت هذه حافلة بأسماء الأماكن والبلدان وتقاطع الأرض ، وذلك لأنها تقوم علامات على بعضها ، وبلاد العرب إما يابس أو ماء ،

ويتمثل يابسها في جبالها وبيدها ، ويتمثل ماؤها في البحار المحيطة بها إلا من جهة الشمال .

٣ - ١ الجبـال والمرتفعـات

لقد تأثر العرب بهذه التضاريس ، لأنهم كانوا دائمي النجعة والتنقل ، وكان عليهم - كما أسلفنا - أن يطووا أثناء ذلك مسافات شاسعة من الرمال التي تثوخ فيها الأقدام ، ويعز فيها الماء كما كان عليهم أن يرتقوا جبالاً عالية قد تعترض سبلهم ، الأمر الذي ينال منهم ، لأنهم لم يعتادوا تسلق الجبال في معظمهم ، ويصور أوس بن حجر ذلك في أبيات من قصيدة وصف فيها الجبل الذي ارتقاه ليبلغ شجرة نبع ، يتخد منها أقواساً فقال :

فُويقَ جُبَيْلٍ شامخِ الرأسِ لم تكــنْ لتبلُغَهُ حتَّى تَكِدَّ وتَعَمَــلا(٩٤)

فبلوغ ذروة هذا الجبل يتطلب كداً وإعمالاً للطاقة ، وقد صغر الجبل تعظيماً له وتهويلاً لأمره ، وإلا لما صح قوله مع ذلك «شامخ الرأس» ، ولا قوله «حتى تكد وتعمل» .

ومن ألفاظ التضاريس التي شاع ورودها في أشعار الجاهلية الألفاظ التي تخص المرتفعات بأنواعها ، فسطح الجزيرة العربية غني بهذا النوع من التضاريس ، وقد كان ورود تلك الألفاظ على نحو يدل على معرفتهم بطباعها ومكوناتها ، فالظِّرْب جبل صغير حجارته مسننة متناثرة تكاد تغطيه ، وقد ورد هذا اللفظ في صيغة الجمع في بيت ينسب لأخي امرىء القيس بعد مقتل أبيه هو :

إن جَنْبِي عن الفِراشِ لنابــي كتجافي الأَسَرّ فوق الظِّـرابِ(٩٥)

فأنت تلاحظ أنه قد جيء بهذه الكلمة لتقوم بمعنى وتؤكد دلالة لا يمكن أن ينوب عنها في أدائها لفظ آخر ، فالشاعر يعتذر عن الأخذ بثأر أبيه متعللاً بنبو جنبه عن ظهور الخيل ، وأنه لا طاقة له بامتطائها ، تماماً كالبعير الذي تقرحت كركرته ، فهو يتحاشى البروك على الظِّراب حيث الحجارة التي تدمي قروحه ، الأمر الذي لا يكون على هذا النحو إلا على الظِّراب .

ومما حدا بهم إلى توخي التدقيق في تمييز التضاريس وتصنيفها هو حاجتهم إلى ذلك في تحديد الأماكن والطرق أثناء الارتحال والسفر ،فكانوا إذا وُصِفَ لأحدهم السبيل استناداً إلى تلك المعالم فعبر الصحراء ، فإنه لا بد مهتد إلى مخرج منها إلا أن تحيط به دائرة .

وقد كانوا يُكَنّون بصعود الجبال عن التصدي للمصاعب والقدرة على تحملها ، وذلك لما في ارتقائها من مشقة وعناء لا يقوى على احتمالهما إلا الأشداء . وهذا دريد بن الصمة يفاخر بقومه قائلاً :

إذا أحزنوا تغشى الجبالَ رجالُنا كما استوفَزَتْ فُدر الوعولِ القراهبُ[٩٦]

يصف قومه بأنهم يرتقون الجبال إذا لاذ غيرهم بالحزون عاجزين عن ارتقاء الجبال . وقد تمثل الحجاج في مستهل خطبته المشهورة ببيت من شعر الجاهلية يدور حول المعنى وهو :

أنا ابن جلا وطلاّعُ الثّنايا متى أضعِ العمامةَ تعرفوني[٩٧]

أي طلاّع الجبال كنايةً عن شدة البأس ، وكذلك قالوا «طلاع أنجد» أي يركب الأمور الصعاب ، ومن ذلك قول الشاعر :

وقد يقْصُرُ القُلُّ الفتى دونَ همِّهِ وقد كان لولا القُلُّ طلاعَ أنْجُدِ[٩٨]

يعزّي نفسه إذا حيل بينه وبين مراده بالرغم من أنه يسمو دائماً إلى معالي الأمور وذلك بسبب إقلاله .

وقد استعان الجاهليون بما عرفوه من طبائع التضاريس في رسم صور تعبيرية رائعة ، فالربع ما ارتفع من الأرض فوق الحزن ، والقرارة ما اطمأن منها ، وسطح الأرض من هذين ، يقول المفضّل النُّكْرِيُ :

بكلِ قرارةٍ وبكلِ رِيْعٍ بنانُ فتىً وجمجمةٌ فَليقُ[٩٩]

فالشاعر يريد أن يبين لنا أن قومه قد أصابوا أعداءهم وأعملوا فيهم حد الظبات وأكثروا القتل فيهم ، فتلك جثثهم وأشلاؤهم تغطي الأرض ما ارتفع منها وما انخفض .

كما استعانوا بما عرفوه من ظواهر الطبيعة ، فوصفوا أنفسهم بما كان حسناً من صفاتها ، ونفوا عنها ما كان سيئاً مشئوماً ، قال تأبط شراً :

ولستُ بِجِلْبِ جِلْبِ غَيْمٍ وقَرَّةٍ ولا بصفا صَلْدٍ عن الحقِ مَعْزِلِ[١٠٠]

أي لست برجل لا نفع فيه ومع ذلك فيه أذى ، كذلك السحاب الذي فيه ريح وبرد ولا مطر فيه ، ولا أنا ممن يعدم الناس خيرهم كذلك الصفا الصلب الذي لا ينبت شيئاً تنتفع به الناس والسائمة .

وقد سمى العرب بعض المناطق بصفات جغرافية تمتاز بها فصارت أسماء وأعلاماً عليها ، وذلك لارتباط وثيق بين الاسم والصفة ، ومن ذلك نجد والحجاز والإحساء وغيرها .

فالنجد في العربية ما ارتفع من الأرض واستوى وغلظ كالهضبة ، وهذه صفة بارزة تميز الإقليم الذي يقع في وسط الجزيرة ، فسموه بما فيه ولزمته التسمية علماً عليه . قال أحد الأعراب :

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ويجلو ذُرى الظلماء ذكّرتني نجدا

ألم تَرَ أن الليل يقصُرُ طوله بنجد وتزداد النطاف به بردا[١٠١]

حيث ينصرف نجد هنا للإقليم الذي يتوسط الجزيرة العربية .

والحجاز فِعال من حجز بمعنى حال بين أمرين ، وجبال المنطقة الغربية من الجزيرة العربية تحول بين نجد وتهامة[١٠٢] ، وقيل أيضاً إن حرات الحجاز تحول دون تقدم الغازين ، فهي حامية أهله[١٠٣] ، ولهاتين الصفتين فقد سموه بما هو شأنه .

٣ - ٢ البحـــر

وكان عليهم أن يركبوا البحر في بعض رحلاتهم التجارية ، وذلك يقتضي معرفة به وبأحواله وتقفنا أشعارهم على تلك المعرفة ، حيث وصفوه وصفاً ينم عن إدراك لطبيعته وأحواله وكيفية الإبحار فيه ، قال امرؤ القيس :

ركبَ اللجِّ إلى اللجِ إلـــى غَمَراتِ البحر ذي الموت الأشد

حين أرسى كلُّ مَنْ يعرِفــهُ وارتمى الآذِيُّ منهـا بالزَّبَـد[١٠٤]

حيث يشير البيت الثاني إلى أنهم كانوا يعرفون البحر وطباعه معرفة جيدة ، ولذلك كانوا يرسون سفنهم ، ويعدلون عن الإقلاع إذا هاج البحر وتلاطمت أمواجه .

وقال ضابىء البرجمي يصف إرقال ناقته بأنه مثل :

تَدافع غسّانيةٍ وَسْطَ لُجّــةٍ إذا هي همت يومَ ريحٍ لتُرْسَــلا[١٠٥]

ونلاحظ أن كلا الشاعرين قد وفقا في استعمال كلمة (لج) وهو معظم الماء وموجه ، إذا هاج يكون عاتياً وخطره أحدق ، كما أن حركة السفينة فيه تكون أسـهل في حـال هدوئه نظراً لعـمـقـه ، وهذه المعـاني تدلنا على أن الشـاعرين قـد وفـقـا في رسم الصورتين ، فلم يضعـا الضحل مكان اللج ، إذ تقتضي الصورتان أن يكون الماء كثيراً ليكون خطراً ذا غمرات موت في بيتي امرىء القيس ، وليكون مما يسهل الإبحار فيه في بيت البرجمي ، وهذان لا يتمان في ماء ضحل .

وقد كانوا يقفون بالبحر وتسترعي انتباههم أمواجه المتتابعة ، فلا تتلاشى موجة حتى تنشأ أخرى ، وهكذا ، ولقد كان بعضهم عشاقاً ، وكثيراً ما كانت تؤرقهم أطياف الأحبة فيبيتون الليل يراقبون نجمهم متى يدخله راعيه في مراحه الغربي ، فكان ليلهم يمر وئيدا تتعاقب أبعاضه كتتابع موج البحر الذي لم يكونوا يرون آخره ، فأعجبهم ذلك التشابه ، ومن قولهم في ذلك :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَــهُ عليَّ بأنواع الهمومِ ليَبْتَلـي[١٠٦]

كما شبهوا بـذلك كتائب الجيش في كثرتها وتتاليها ، قـال متمم بن نويرة :

فما فَتِئوا حتى رأَوْنا كأننـــا مـع الصبح آذيٌّ من البحرِ مُزْبِـدُ[١٠٧]

٣ - ٣ الأحســـــاء

والحسي في العربية ماء دون السطح غير بعيد منه ، يستخرج بعد الحفر عنه ، وكلَّما نزف ماؤه جم ، قال امرؤ القيس :

يَجُمُّ على الساقينَ بعد كلاله جُمومَ عيونِ الحِسْيِ بعدَ المَخيضِ(١٠٨)

وتكثر الأحساء في شرق الجزيرة العربية ، ولذلك سموا هذه المنطقة بما يكثر فيها - الأحساء .

٣ - ٤ المضائق والخلجان والمد والجزر

وقد عرف الجاهليون المضائق والخلجان كما عرفوا ظاهرتي المد والجزر ، قال سهم بن حنظلة الغنوي :

مَدَّ الخليجُ ترى في مده تَأَقاً وفي الغوارب من آذِيِّهِ حَدَبا(١٠٩)

والخليج هنا ينصرف لما نعرفه الآن باسم الخليج العربي أو لخليج فيه ليس صغيراً ، وذلك ظاهر في قوله «ترى في مده تأقا» ، والتأق شدة الامتلاء ، وفي قوله «وفي الغوارب من آذيه حدبا» حيث تسمح سعته بتكون الأمواج العالية .

وينصرف الخليج في أشعارهم إلى معنى النهر ، وذلك لعلاقة المشابهة في أن كليهما مستطيل ممتد وأنهما يختلجان أبداً ، هذا بسبب الجري وذلك بسبب الموج ، ومن ذلك قول امرىء القيس :

فعيناكَ غَرْبا جدولٍ في مُفاضَةٍ كَمَرِّ الخليجِ في صفيحٍ مُصَوَّبِ(١١٠)

فالخليج النهر الذي يتفرع من النهر الأعظم ، وهو هنا مجرى النهر إلى الروضة ، ولذلك جعله من صفيح أي حجارة ، وجعلها مصوبة أي منحدرة ، وذلك أسرع لجري الماء فيه وفي قوله كمر الخليج إشارة أيضاً إلى أن المقصود

مجرى الماء ، لا الخليج الفتق في الأرض يغمره ماء البحر لأنه لا يمر ولا يجري .

ولم أقف في أشعارهم على ما يشير إلى المضيق يكون في البحر ، بل وجدته لما يكون في اليابس بين الجبال ، وأرى أن هذه الدلالة هي الأولى ، حيث إن الإنسان كان أول ما كان على اليابس لا في الماء .

ولم أجد المضيق البحري إلا في كتب الجغرافيين بعد الإسلام ، قال امرؤ القيس :

إذا ضَمَّها لَحْيا مَضِيقٍ بَدَتْ لـه بُمْنْفَضخٍ قَيٍّ السُّهوبِ مُتُونُ(١١١)

يريد أن ناقته إذا جاءت مضيقاً فَسَدَّ عليها الأفق فإنها لا تلبث أن تخرج منهُ مُشْرِفة على أرض واسعة ، والدليل على معنى المضيق أنه جعل له لَحْيَين على التشبيه بلَحْيي الإنسان أو الحيوان ، وهما صلبان بينهما فرجة ، وهو كذلك .

٣ - ٥ الصحـــارى

ولقد أطلق الجاهليون على بعض أجزاء السطح أسماء منقولة عن أمور قد تحدث فيها ، كالتيه والمفازة من أسماء الصحراء ، فالأول لأن الصحراء كثيراً ما يتيه فيها الإنسان ، ومن ذلك تيه بني إسرائيل ، غير أن العرب كانوا يرجون أن يفوزوا بالنجاة إذا عبروها ، فكانت من ذلك التسمية الثانية - المفازة ، قال ضابىء بن الحارث :

مهامه تيهٍ من عُنيزةَ أصبحت تَخالُ بها القعقاعَ غاربَ أجْزلا[١١٢]

وقال امرؤ القيس :

وكم دونَها من مهمهٍ ومفازةٍ وكم أرضِ جدْبٍ دونَها ولُصوصُ[١١٣]

٣ - ٦ المنخفضـــات

وقد ورد في أشعارهم كثير من الألفاظ الدالة على المنخفضات بأنواعها المختلفة ، وذلك لأن أثرها في حياتهم لا يقل عن أثر المرتفعات ، إذ فيها تتجمع مياه الأمطار ، وفيها تسيل ، وفيها ينزلون إذا تذأبت الرياح ، وفيها تنبت الأعشاب التي تقوم عليها الحياة ، قال تأبط شراً :

وَشِعْبٍ كَشَلِّ الثوبِ شَكْسٍ طريقُهُ مجامعُ صَوْحَيْهِ نطافٌ مُخاصرُ

به من سيولِ الصيفِ بيْضٌ أقرَّها جُبارٌ لِصُمِّ الصخرِ فيه قراقرُ[١١٤]

يصف شِعباً قام على جانبيه حائطان من جبلين عاليين وقد خلف فيه السهل غدرانا بيضاً كان احتفر الأرض لقوته فخلفها في أماكن من الشعب ، والمنخفضات كالمرتفعات ، متفاوتة في مقدار انخفاضها فمنها سحيق غائر قابلوه بنجد ، جاء في النوادر :

أصْعَدَ أهلي مُنْجِدينَ وغارتِ[١١٥]

أي ارتقوا نجدا أو توجهوا نحوه ، أما هي فقد غارت أي أتت الغور ، وهما غوران غور تهامة وغور الأردن ، واشتقاق الغور (فعل من غار يغور) ويشبه الخسف ، ويقال : غار الماء وغوَّر إذا انسرب في باطن الأرض ، وغار النجم غاب وغرب ، وكل ذلك سواء في أصل الدلالة الذي هو الحدور والانخفاض .

وقد يكون ذلك المنخفض ذا أبعاد أفقية وتنبت فيه أشجار بعينها ،

كالسدر أو الأراك أو الأرطى أو الطلح وغير ذلك ، فخصوا كلاً من هذه المنابت باسم لا ينصرف لغيره ، فالخَبْرة قاع يحبس الماء ويُنبت السدر ، والغريف والأيكة تنبتان الأراك ، والغول والغلان تنبتان الطلح ، والعرين ينبت الأثل . . . إلخ[١١٦] ، ومثل هذا التقسيم لم تعرفه لغة فيما أعلم غير العربية ، قال امرؤ القيس في الخبرة :

كأني ورْدفي والقِرابَ ونُمرُقي   على ظهرِ عَيْرٍ وارد الخَبَرات[١١٧]

قال الأصمعي : الخبَرَات جمع خَبْرة وهو قاع يحبس الماء وينبت السدر[١١٨] .

وقد يكون المنخفض شديداً حاداً في انخفاضه ، وذلك غالباً ما يكون بين جبلين ، فلم يفتهم أن يخصوه باسم يميزه ، بل بأكثر من اسم ، ومن ذلك اللّهب واللّصب والهَلَك والهَجْل ، قال خفاف بن ندبة :

بَردٌ تَقَحّمهُ الدبورُ مراتباً   مُلقى ضواحي بَيْنَهنّ لُهوب[١١٩]

وقال أبو دؤاد :

وراح علينا رِعاءٌ لنا   فقالوا : رأينا بِهجْلٍ صُوارا[١٢٠]

وقد يكون المنخفض عريضاً ممتداً وادياً كان أو غيره ، كالفج والجَوّ والميثاء ، وقد يكون هبطة تحفها أرض مديدة مستوية كالغائط والقاع والغَيْب والقرار ، فلم يفتهم أن يسموا ذلك كله ، وذلك إمعاناً منهم في التدقيق إذا وصفوا أو أرشدوا ، وتلك ضرورة يفرضها ارتباطهم الجوهري بالطبيعة .

٣ - ٧ الحَرّات والبراكين

وتغطي الحرات مساحات واسعة من سطح الجزيرة العربية ، وكان العرب

يتجنبون السير فيها راجلين أو راكبين وذلك لكثرة الحجارة التي تشكل بساطاً أسود وثيق النسيج ، وكانوا يلوذون بها إذا دهمهم غزاة لا حيلة لهم بصدهم ، فهي درع حصين قد ينتفع به ، غير أنها لا تنبت في الغالب وإن أنبتت فإن أعشابها تجف دون أن تنال منها ماشيتهم ، وذلك لوعورتها .

ونجد في أشعار الجاهلية إشارات إلى أنهم شاهدوا البراكين ثائرة ، الأمر الذي كان يبعث في نفوسهم رهباً ورعباً ، مما دعا بعضهم إلى عبادتها . قال أبو حنيفة الدينوري : «وكان لذي نواس بأرض اليمن نار يعبدها هو وقومه ، وكان يخرج من تلك النار عنق يمتد فيبلغ ثلاثة فراسخ (١٨ ميلاً) ثم ترجع إلى مكانها» - أي تخمد[١٢١] .

ومن تلك البراكين «صوران» ، وهي نار كانت تظهر ببعض الحرار بأقاصي بلاد اليمن»[١٢٢] وقد كانت لا تزال ثائرة في إحدى الحرات زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١٢٣] ، وكانت سحب الدخان تخرج في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه من بعض الجبال القريبة من المدينة المنورة[١٢٤] ، وقد علمت ممن أثق به أن الدخان لا يزال يخرج من مكان يقال له «أمثودة» - الثودة - من بلاد بني شهر في تهامة عسير ، وذلك عندما كنت أعمل مدرساً في بلادهم عام ١٩٦٨م .

وقد رصد بعض شعراء الجاهلية هذه الظواهر في أشعارهم ، ولكنهم كانوا يعبرون عن البركان بلفظين هما الحَرَّة والنار ، قال عرعرة النمير في الحرة :

بِحَرَّةِ القوسِ وجنبي مَحْفَل بينَ ذُراهُ كالحريقِ المُشْعَلِ [١٢٥]

وقال آخر :

بِحَرّةٍ لبُنَ يَبْرُقُ جانباهـــا   رَكودٌ ما تُهدُّ من الصبـــاحِ[١٢٦]

ولقد فرّق العرب بين الحرة تكون في غلظ من الأرض والحرة تكون في الرمل ، فخصوا هذه الأخيرة باسم تعرف به فقالوا فيها «بسقة» ، كما فرقوا بين مسايل الماء من الحرة ومسايله من غيرها ، فخصوا ما سال منها باسم الشراح ، وكذلك فقد أطلقوا على الحرة أسماء تعرف بها مثل اللابة واللوبة ، وهما ما يلفظه البركان من حمم تسيل على سطح الأرض مغطية ما أحاط بالبركان ، فلا تلبث أن تبرد فتشقق حجارة سوداء نَخِرة ، وقد انتقل اللفظ العربي (لابة) إلى اللغات الأوروبية (LAVA) ، وقد أفضنا في تحليل هذا الموضوع في بحثنا «صفات لغوية في التاريخ الطبيعي للجزيرة العربية» الذي نشرته مجلة الجدارة السعودية في عددها الثاني ١٤١٠ هـ .

وقد يطلق العرب على الحرة اسم السوداء ، وهو محول عن صفة لأنها تكون كذلك ، والرجلاء وذلك لأنها ترجل سالكها لوعورتها فلا يقدر على الركوب فيها[١٢٧] .

٤ – المـــاء

٤ – ١ أهميتـــه

كان الماء – ولا يزال – عزيزاً في كثير من أرجاء شبه الجزيرة ، مما جعل من الحياة في كثير من بقاعها أمراً يتطلب دوامه جهداً وعناء كبيرين ، فكثيراً ما أعيى طلبه قاطنيها . ولشد ما كان ذلك من قبل ، حين كان يتسبب في نشوب المعارك بينهم ، وما عقر أحمر عاد ناقة صالح عليه السلام فاستحق هو وقومه العذاب الأليم إلا استبقاء لما كانت تشربه ، وما قرّب موسى من شعيب

عليهما السلام وزوّجه من إحدى ابنتيه إلا أنه سقى لها من ماء مدين الذي كان يزدحم بالرعاء . وما جعل وائلاً يرمي ناقة سعيد بن شُميس الجَرمي بسهم خلط دمها بلبنها فألهب حرب البسوس ، إلا أن تلك الناقة قد وردت مع إبله . وكان عمرو بن كلثوم يفاخر بأن له ولقومه السبق في الورد ، فهم يشربون صفو الماء ، ولا يجد غيرهم إلا حثالته وقد خالطها الطين ، وقال :

ونشرب إن وردنا الماء صفـــوا ويشرب غيرنا كَدِرا وطينـــا[١٢٨]

وكم وقف شعراء الجاهلية بالأطلال ودعوا لها بالسقيا ، عسى أن تمرع الأرض فيرجع الأحبة إلى منازلهم ، يقول طرفة :

فسقى ديارَكِ غيرَ مفسِدِهـــا صوبُ الربيع وديمةٌ تَهْمِـــي[١٢٩]

٤ - ٢ شـــح المـاء في جزيـرة العـــرب

ليس في الجزيرة العربية أنهار بالمعنى الذي نعرفه للنهر ، وإنما هي أودية تمتلىء بالماء في مواسم المطر ويغيض ماؤها بعد ذلك[١٣٠] . غـيـر أن بعض المؤرخين ذكروا نهرين عظيمين كانا فيها في الماضي البعيد ثم جفا وزحفت الرمال على مجرييهما فأصبحا لا يُلفى لهما أثر ، فقد ذكر هيرودتس نهراً أسماه (Koras) كورس ، زعم أنه نهر كبير عظيم يصب في البحر الأرتري - البحر الأحمر - وزعم أن العرب كانوا يذكرون أن ملكهم قد عمل ثلاثة أنابيب صنعها من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات امتدت من النهر إلى البادية مسيرة اثنى عشر يوماً ، حملت الماء من النهر إلى مواضع منقورة نقرت لنقل المياه الآتية من ذلك النهر فيها[١٣١] .

ويقول «بروكلمان» إنه كان بالجزيرة العربية ثلاثة أنهار كبيرة على الأقل وذلك استناداً إلى البحوث الجيولوجية الحديثة حسب قوله[١٣٢] . كما ذكر

بطليموس نهراً آخر أسماه (LAR لار) زعم أنه كان ينبع من منطقة نجران ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب ، حيث يصب في الخليج العربي[١٣٣] .

وموقع هذا النهر إن صح الخبر إما أن يكون وادي حبونا الواقع غير بعيد من نجران جهة الشمال ، أو وادي نجران نفسه .

وقد لاحظت أثناء إقامتي في نجران ١٩٦٥ أن واديها مؤهل لأن يكون مجرى نهر عظيم ، كما لاحظت آثار قنوات قديمة في بلدة الموفجة قرب الحدود اليمنية في مكان يقال له الثافرة . وهناك أيضاً المضيق ، وهو ممر في جبل ناري الصخور كأنما نشر فيه بآلة حادة يصل بين غائط من الأرض يتجمع فيه ماء المطر وبين تلك القنوات التي مدت في سفح الجبل عن شمالك إذا استدبرت المضيق ، ويزعم الناس هناك أن الماء كان يجري في هذه القنوات مسافات طويلة تروى به البساتين المحيطة بوادي نجران ، كما يزعمون أن الذي نحت ذلك المضيق رجل اسمه «عاد بن كنعان بن عامر» ، وفي وسط المضيق هوة قعرها دان من سطحه يقولون إنّها «تنور علياء» ويزعمون أنه هو المقصود بقوله تعالى : «وَفَارَ التَّنُّورُ» وقدرأيت في صفحة المضيق الشمالية بقايا نقش طامس لم أتبينه لارتفاعه الذي يزيد على اثني عشر متراً .

٤ - ٣ الآبـــار والســـدود

غير أن أحداً من عرب الجاهلية لم يقل بوجود نهر ولا أنهار فيما نعلم ، ولكنهم كانوا إذا نزل المطر يشربون ما تجمع منه في الأقلات ونُقر الصخور والقيعان ، غير أن ما في هذه من ماء ما كان ليدوم ، فالأرض تبتلع والحرارة والريح تبخران ، ولذلك حفروا الآبار وأقاموا السدود ، وقد خلّد القرآن الكريم

عملهم ذلك في سورة سبأ ، حيث أشار إلى سد مأرب الذي كانوا يكظمون وراءه ماءكثيراً ، ويؤكد كثرة ما كان يحجزه من ماء أنه دمر ديارهم واجتاح جناتهم عندما انهار ، فتشتتوا في البلاد أيادي سبأ ، ولكن عرب الجاهلية كانوا رُحّلا في معظمهم ، والسدود لا ينتفع بها إلا مقيم ولذلك فقد علّموا على العيون والينابيع والغدران التي يطول مكثها لأنها أوفى بحاجتهم من غيرها وربما حفروا آباراً وغدراناً واسعة في مناطق تجمع ماء المطر ، ومن ذلك ما فعله عبد شمس ، إذ حفر غدير خمّ وكشف عن بئر زمزم قال الشاعر في ذلك :

حفرت خَمّاً وحفرت زَمّــــا حتى ترى المجدَ لنا قد تمــا[١٣٤]

وقد كانت الناس تأتي هذا الغدير في الجاهلية وصدر الإسلام يتنزهون فيه ، وفي هذا إشارة إلى أنه كان كبيراً وأن ماء كثيراً كان يستقر فيه .

٤ - ٤ مصــــادر أخـــــرى

وقد ذكر الشعراء الجاهليون كثيراً من مصادر المياه التي كانت تمدهم بما كانوا يحتاجون إليه ، قال عبيد بن الأبرص :

أقفر مـن أهلـه ملحـــــوب فالقُطَّبِيــات فالذَّنـــوب
فـــــــراكـــس فثُعَلْبيات فــذات فِرقين فالقَليـــب
واهـــية أو مَعـــين ممِعــــن من هضْبةٍ دونها لُهـــوب
أو فَلَــجٌ مـــا ببطــــن واد للمـاء مـن تحته قسيــب
أو جَدْولٌ في ظـــلال نخــلٍ للماء من تحته سُكـــوب

. . .

بـل رُبَّ ماءٍ وردتُ آجِـنٍ سبيلهُ خائــفٌ جديـــب[١٣٥]

ولا يخلو بيت من هذه الأبيات من مصدر للماء ، كما نستخلص أن الشاعر كان في تنقله يتتبع أماكن الماء ، فهو لم يستعمل في عطفها الواو التي تفيد المصاحبة بل استعمل الفاء لإفادتها التعاقب ، و «أو» التي يشير استخدامها إلى أن ما عطف بها هو أماكن تقع على طريق آخر ، وهذا يبين لنا كيف أن الماء كان يتدخل في كل شيء حتى في تخطيط الطرق ، وهذه المصادر التي ذكرها عبيد في الأبيات هي :

القَليب وهو البئر تحفر فعيل بمعنى مفعول من (قلب) .

المَعين وهو الماء الظاهر على وجه الأرض جوفياً كان أو بقية من ماء مطر .

الفَلَج وهو النهر الصغير ويطلق على قناة الري .

الجدول وهو نهر صغير ممتد وماؤه أقوى في أجماع أجزائه من المنبطح السائح .

ماء آجن وهو الآسن الذي تغير ولا يكون إلا قارّاً ناقعاً في حفير أو في نقرة .

ومن مصادر الماء التي ذكرت في أشعارهم النِّهْيُ أو النِّهي ، وهما التَّنْهِية والتَّنْهَاة ، وهي جميعاً ما ينتهي إليه الماء ، فيستنقع فيه لانخفاضه ويمنعه ارتفاع ما حوله من أن يسيح ويذهب على وجه الأرض ، والبدو يقولون «النِّهي» حتى الآن ، وقال أبو قيس بن الأسلت :

اعددتُ للحربِ موضونَةً مُتَرَّصَةً كالنِّهْيِ بالقاع(١٣٦)

وقال علقمة الفحل :

وَضَّاعةٌ كعِصِيّ الشَّرْعِ جَؤْجُؤُهُ كأنه بِتَناهي الروضِ عُلجومُ(١٣٧)

٤ - ٥ الغـــدران

وهو ما يبـقى على وجه الأرض من مـاء السـمـاء ، وغـالبـاً مـا تكون في مجاري الأودية ، قال عبد قيس بن خفاف في الغدير :

كماءِ الغدير زَفَتْهُ الدَّبُـــور يَجُرُّ المدجَّجُ منها فُضــولاً[١٣٨]

حيث شبه درعه في بريقها وترقرقها بماء الغدير وقد مرت به ريح الدبور ، الأمر الذي يجعل أجزاء سطحه كأنها مرآة مكسرة ، واختار الدبور لأنها تكون شديدة المرور ، وقال المُنَخَّل اليشكري :

فـدفعتهــا فتدافعـــت مَشْيَ القطـــاةِ إلى الغديـــر[١٣٩]

٤ - ٦ الأحســـاء والعيـــون

لعل أهم مـصـادر المياه في الجزيرة العـربيـة قديماً وحـديثـاً هي الأحسـاء ، وذلك لأنها إذا نزفت جمعت من جديد ، والحسي ماء يغو ر في الرمل فيوافق صـلابة ، فـإذا كـشف عنه وجـد قـريبـاً ويدرك باليـد ، وقـد يقـال فـيـه ركـيـة أو حفيرة ، قال المرقش الأصغر :

يَجِمُّ جُمومَ الحِسْيِ جاش مضيقُهُ وَجَرَّدَهُ من تحتُ غَيْلٌ وأَبْطَحُ[١٤٠]

ومـضـيق الحـسي مَرْشَحُهُ ، وجـاش مَدّ . وقـوله «جَرَّدَهُ من تحت غـيل وأبطح» ، يعني أن هذا الحِسْي يأخـذ من غَيْل جار تحت الأرض في رضراض وحصى لا يمسك الماء .

٤ - ٧ القـــلات

ومن مـصـادر الماء التي ذكـروها في أشعـارهم القِلات أو الأقـلات جـمع

قَلْت ، وهو النُّقْرة في الجبل تمسك الماء ، وهو مذكر بدليل قول مالك بن حريم الهذلي :

وقلتاً قَرَتْ فيه السحابةُ ماءَهـا بأنيابها والفارسيَّ المُشعشعا[١٤١]

وذلك حيث ذكّر الضمير العائد له في قوله «فيه» ، وهذا يفند ما جاء في النوادر حيث قال أبو زيد إنه مؤنث ، واستشهد لذلك بقول أبي النجم العَجْلي - وهو إسلامي :-

فَسَحَّرَتْ خضراءَ في تسحيرها قلتاً سقتها العينُ من غزيرها[١٤٢]

حيث أنث الضمير العائد في قوله «سقتها» ، والعَيْنُ سحابٌ ينشأ من قِبَلِ القبلة ، مطير .

٤ - ٨ السيـــول

وليس أبهى في عيون الأعراب من منظر السيل الذي يجرف القحط والمحول ، ويروي الأرض مخلّفاً وراءه الغدران والبرك ، ولقد سمعت بعضهم في أكناف الربع الخالي الشمالية إذا رحّبوا بالضيف يقولون : زارنا السيل ، وقد كانوا يشبهون جموعهم بالسيول كما شبهوها بالعارض ، وذلك إعجاباً بها وتيَمُّنا ، قال المفضّل النُّكري :

فجاءوا عارِضاً بَرِداً وجئنـا كسيلِ العِرْضِ ضاق به الطريق[١٤٣]

يقصد ضاق به مجراه .

٤ - ٩ أحـوال المـاء

وليست مياه الجزيرة عذبة أو صالحة للشرب في كل الأماكن ، إذ إن فيها

ما تأبى البهائم أن تشربه ، ويعاف الحَرّان أن يتبلّغ به نظراً لملوحته ، وفي ذلك يقول الحارث بن ظالم :

أبائرُ مِلْحَةٌ بحَزيزِ سَـــوْءٍ تبيتُ سُقاتُها صَرْدى سِغابـــا(١٤٤)

أي أن هذه الآبار ملْحٌ ماؤها ، وأنّ وارديها يبيتون عطشى لأن ماءها لا يشربُ ، وجياعاً لأن الماء لا يصلح لأن يُجعل في الزاد ، ولذلك أضاف الحزيز الذي هي فيه إلى السوء ، وقد كانوا يفضلون الماء الآجن على الماء المِلح ، اذا كان عليهم أن يختاروا ، بل كانوا يرون أن ما يعلو الماء من طحالب وخِضْرِم تجعله خيراً من غيره بما تحفظه بارداً ، لأنها تحجب عنه حرّ النهار ، قال خِفاف بن نُدْبة :

تَبيتُ إلى عِدٍّ تقادَمَ عهدُهُ بحُرٍ تقى حَرّ النهارِ بغَلْفَقِ(١٤٥)

والغلفق ما غطى الماء من الطحلب .

٥ - الغطاء النباتي

إذا كان الماء هو العنصر الأساسي الذي تقوم عليه الحياة فإن للنبات من الأهمية ما يجعله هو والماء صنوين لا يُستغنى عن أحدهما ، مع العلم بأن الماء هو جوهر النبات ، ويدخل النبات في حياة الإنسان من طريقين ، أولهما مباشرة ويتمثل في تناول الإنسان بعض النباتات وأكلها نيئة أو مطبوخة رطبة أو يابسة ، ويتمثل الثاني في أن الحيوانات تأكل النبات وتقدم للإنسان لحمها و لبنها وظهورها وأوبارها وغير ذلك . والجزيرة العربية فقيرة في النبات لقلة أمطارها وكثرة رمالها ، مما جعل الحياة فيها شاقة .

٥ - ١ المناطـــق الخضـــراء

وقد عرفت بعض مناطق الجزيرة الزراعة وأشهر هذه المناطق اليمن ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان عليه اليمن من خصب وخضرة دائمة ، وذلك في قوله عزّ وجلّ يصف مسكن سبأ بأنه «جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وشِمَالٍ»[١٤٦] .

ومن تلك المناطق الطائف ، ومـوقـعـهـا جنوب مكة في بداية الطريق الصاعد إلى اليمن ، وهي جنة مكة ومصيفها ، ولعل السبب في خصبها أن الأمطار الموسمية تدوم بها من أربعة أسابيع إلى ستة ، وعندما تنقطع تكثر الآبار التي تصلح لسقي حدائقها[١٤٧] .

ويثرب وما أحاط بها من وديان . ويعزى خصب هذه المنطقة إلى تفكك الصخور البركانية ووفرة المياه الجوفية ، بالإضافة إلى ما ينزل عليها من مطر في الشتاء ، وتشتهر هذه المنطقة بزراعة النخيل شأنها في ذلك شأن الواحات المتناثرة في أنحاء متفرقة من الجزيرة .

٥ - ٢ المناطـــق الجافـــة

أما فيما يتعلق بأرجاء الجزيرة الأخرى فهي بيد متناصية ، ووديان قاحلة ، قلما تستجيب لها السماء ، وصدق الله تعالى إذ وصف وادي مكة بأنه «بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ»[١٤٨] ، فلا عجب إذاً إن رأينا سكان البوادي يُغيرون على تلك البقاع العامرة حيث الماء والزرع والمواشي السمينة ، فهذا تأبط شراً يصرح عن وجهات غزواته قائلاً :

فيوماً على أهلِ المواشي وتـارةً لأهلِ رَكيبٍ ذي ثَميلٍ وسُنْبُلِ[١٤٩]

فهي غارة على أهل المواشي وأهل المزارع يغزوهم في جماعة من رفاقه الصعاليك ، فيصيب منهم ما لا يجده عند غيرهم .

ويبين قول عروة بن الورد الآتي ما كان للجدب من أثر في تنشيط عمليات الغزو والنهب وتحديد اتجاهاتها ، قال :

فيوماً على نجدٍ وغاراتِ أهلِها ويوماً بأرضٍ ذاتِ شَثٍّ وعَرْعر[١٥٠]

فهو يغير على نجد في وسط الجزيرة مرة ، وعلى عسير والحجاز مرة أخرى ، لأن الشث والعرعر لا ينبتان إلا في تينك المنطقتين ، لأنهما من نباتات المناطق الباردة ، وهما باردتان نظراً لارتفاعهما ، ولا شك في أن الجدب يتطلب ممن ينزل بهم صبراً جميلاً ومجالدة عنيفة ، ولذا نجدهم يفتخرون بمقدرتهم على الصمود في وجهه ، قال ذو الخِرَق الطُّهَوِيّ :

فِيئي إليكِ فإنّا معشرٌ صُبُرٌ في الجَدْبِ لاخِفَّةٌ فينا ولا نَزَقُ[١٥١]

وقالت سُعدى بنت الشمردل ترثي أخاها بأنه :

سَمْحٌ إذا ما الشول حارَدَ رِسْلُها واستروَحَ المَرَقُ النساء الجُوَّعُ[١٥٢]

تعني أن أخاها كان جواداً إذا شولت الإبل وارتفعت ألبانها ، وإذا استفحل أمر المجاعة ، وذلك لا يكون إلا في الجدب . ويقدم لنا كعْب بن سعد الغَنَوِيّ صورة حزينة لنفسه وقد افتقد أخاه بقوله :

لِيبكِكَ داعٍ لم يجدْ مَنْ يُعينـهُ طاوي الحَشا نائي المزارِ غريبُ
تَروَّحَ تَزْهـاهُ صباً مُستطيفـة بكلِ ذَرىً والمُستَرادُ جديب[١٥٣]

فهو لم يجد من يعينه أو ما يقيم به إوده ، فالريح تهب من كل جانب ، بالإضافة إلى غربته عن أهله ، وهذه أحوال سيئة تستذرف الدمع ، ولكنها لا تعدل الجدب النازل به ، فكأنه قال : صبر جميل ، فقدت أخي ، ولم يكتف القدر بذلك فأوقع بي هذه المصائب .

ولم يكن الجدب مقيماً أبداً فيهم ، فقد كانوا يخصبون أحياناً ، فيلقون عصا الترحال ويرتاحون من عناء النجعة . وكم كان يسرهم وجه الأرض إذا هي اخضرت بعد طول شحوب ، فلازمت تلك الصورة أخيلتهم ، وزينوا بها أشعارهم ، قال مالك بن حَرِيم الهُذَلي :

ولاحَ بياضٌ في سوادٍ كأنــــه صُوارٌ بجوٍ كان جَدْباً فأمرعــا[١٥٤]

يقصد أن الشيب غزا شعره ، فإذا هو بياض في سواد ، كأنه صُوار ، أي قطيع من بقر الوحش ، والغالب في لونه البياض ، يمرح متفرقاً من منخفض من الأرض أخضر بعد أن كان مجدبا ، فاسودّ لشدة خضرته ، ولعل هذه أول إشارة إلى التعبير بالسواد عن الخضرة ، فالصورة إذا كالتالي :

شعر أبيض يتخلل شعراً أسود تقابل بقراً بيضاً متفرقة في أرض سوداء بخضرتها ، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى «مُدْهَامَّتَان»[١٥٥] صفة لجنتين ذكرهما ، والدهمة درجة من السواد ، ثم استقر لفظ السواد عَلَماً على أرض العراق وذلك لخضرتها .

٥ - ٣ أنـــــواع الغطـــاء النباتـــي

وقد ورد في أشعار الجاهلية كثير من الألفاظ الدالة على الأماكن التي يكثر فيها النبات والشجر ، ومن تلك الألفاظ الجنة بمعنى البستان يكون فيه نخل وماء ، وقد وردت مصغرة في قول خفاف بن ندبة :

بغُرٍّ الثنايا خَيَّفَ الظَّلْمُ نبْتَــهُ وسُنَّةِ رئم بالجُنَيْنَةِ مُؤْنِـــقِ[١٥٦]

وقال امرؤ القيس :

عَلَوْنَ بأنطاكِيَّةٍ فوقَ عِقْمَــةِ كَجِرْمَةِ نخلٍ أو كجنةِ يثرب[١٥٧]

والروضة وهي مطمئن من الأرض ينبت الأعشاب ، قال عبد الله بن عنمة :

فازجرْ حِمارَكَ لا يرتعْ بروضتنا إذنْ يُرَدَّ وَقَيْدُ العَيْرِ مكروبُ[١٥٨]

فالروضة إذن ذات نبات يرعى ، ونباتها يستحق من الشاعر أن يأمر صاحبه بزجر حماره وإخراجه منها استبقاء لعشبها لترعاه ماشيته .

البساتين والكروم

تشير أبيات لأمية بن أبي الصلت ، أوردها صاحب الجمهرة ، إلى أنهم كانوا يمارسون زراعة الكروم وهي :

تنوحُ وقد وَلَّتْ مدبرات تخالُ سوادَ أيكتها عرينا

فأنبتنا خضارمَ ناضرات يكونُ نَتاجُها عنبا وتينا[١٥٩]

وقوله خضارم يعني كروم ، والأيكة تعني الشجر الكثير الملتف ، تنبت الآراك وغيره[١٦٠] ، وفي البيت الأول إشارة إلى إطلاق السواد مكان الخضرة ، إذ الوجه أن يقول : تخال خضرة أيكتها عريناً ، والحديقة بمعنى المرعى الخصب ،قال طرفة في ناقته إنها قد :

تربعت القُفين في الشول ترتعي حدائقَ مَوْلِيٍّ الأسِرَّةِ أغْيَدِ[١٦١]

فالحديقة إذن ، مرعى السائمة وليست كما نفهمه عنها اليوم من أنها ذلك المكان الذي يحمى ويحال بينه وبين السائمة حفاظاً على وروده وأشجاره التي يزرعها الإنسان .

الغِيل والأباءة

ومن الألفاظ التي وردت في أشعارهم للدلالة على مواطن النبت

والشجر – الغِيل بكسر الغين المعجمة ، وهو الشجر الكثير الملتف الذي ليس بشوك . وأكثر وروده في أشعارهم مكاناً تخدر فيه الأسود ، قال أبو الفضل الكناني :

شَتيمٌ أبو شِبلين أخضَلَ مَتْنَهُ   من الدجنِ يومٌ ذو أهاضيبَ ماطرُ

يظل تُغَنّيه الغرانيقُ فوقَــه   أَباءٌ وَغيلٌ فوقه متآصـــرُ(١٦٢)

الأباء ، جمع أباءة ، وهي أَجَمَة القَصَب ، وقال أبو دُؤاد :

وشباب كأنهم أُسْدُ غِيــلٍ   خالطتْ فَرْطَ حدّهم أحــلامُ(١٦٣)

حيث تشير الأبيات إلى أن الغِيل يكاد يختص بدلالته على المكان الذي تتخذ فيه الأسود عُرُنها . وقد اشتقوا منه قولهم في النصحِ والتحذير «لا تتغيل» أي لا تلق بنفسك إلى التهلكة ، والأصل في الدلالة : لا تدخل الغِيل فيأكُلَكَ الأسد!! وجاء في الأساس(١٦٤) قول الزمخشري : تغيَّلَ الأسدُ الشجر ، دخله واتخذه غِيلا . وفي القاموس(١٦٥) : إن المُتَغَيِّل – بصيغة مبنى الفاعل – الداخل إلى الغِيل ، قال ضابىء بن الحارث :

تكاد مغانيها تقول من البِلى   لسائلها عن أهلها : لا تَغَيَّــلا(١٦٦)

الغابة ، كما ورد لفظ الغابة في شعر امرىء القيس لدلالة مشابهة ، وذلك في شعر يصف به ليثاً ، قال :

مُغْلَنْكِسُ الغابةِ جَأْبٌ جَفِرْ(١٦٧)

وفي الجزيرة العربية عدد من المآسد ، كانوا يَتَوَقَّون المرور بها ليلاً ونهاراً ، والمأسدة غابة لا تمتد ، تكون كثيرة الشجر تختفي فيها السباع والأسود ، ومن

المآسد المشهورة في الجزيرة العربية «لَحْظة» ، وهي بتهامة ، يقال : أُسْدُ لَحْظة كما يقال أُسْدُ بِيشة ، «ومأسدة الشرى ومأسدة خَفّان»[١٦٨] .

قال أبو الفضل الكناني :

فنهنهتُ عنه القومَ حتى كأنما حبا دونَها ليثٌ بخفان خادرُ[١٦٩]

الصحـــراء :

وجدت في أشعار الجاهلية ما يشير إلى أن الصحراء لا تكون أبداً جرداء ، بل قد تكون خصبة ينزلها الناس ، ومن ذلك قول امرىء القيس :

إذ هُمُ أهلُ قِبابٍ وقُرى ولهم صحراءُ مِحلالٌ مُرِبّ[١٧٠]

فالمحلال «مفعال من حَلَّ» المنزل الذي لا يزال الناس يحلون فيه ، المرب : التي لا يزال بها ثَرى ومطر ، مُفْعِل من الرُّبّة ، وهي نداوة الأرض .

وأرى أن دلالة الصحراء تنصرف لمعنى السعة ، كذلك البحر ، ولذلك قالوا «رأيته صَحْرة بحْرة[١٧١]» على الإتباع ، ويعنى رأيته قُبُلاً ليس بينك وبينه شيء ، ولا يشترط فيها أن تكون جدباء أو رملاً استناداً إلى ما ورد من صفاتها في قول امرىء القيس السابق ، فإطلاق الصحراء على الأراضي القاحلة والمناطق الرملية الواسعة لم يأت إلا بعد ذلك ، والعلة فيه أن المناطق الرملية والأراضي القاحلة تشبه الصحراء في امتدادها واتساعها ، ويؤكد ما ذهبت إليه أن استعمال كلمة (صحراء) في الشعر الجاهلي لم يكن مألوفاً بقدر استعمال كلمات أخرى تطلق على الأراضي القاحلة والمناطق الرملية

التي نسميها صحاري ، مثل السَّبسب والخَرْق واليَهماء ، والتِّيه والمَفازة والسَّهْب والخَبْت والدّاوِية والطامسة والمُفاضة . . . إلخ .

وتبدو دلالة الصحراء على الاتساع واضحة في قول سلامة بن جندل :

فعزَّتنا ليست بِشِعْبٍ بِحَـــرَّةٍ ولكنَّها بحرٌ بصحراءَ فَيْهَقِ(١٧٢)

أي أن عزتهم ليست قليلة بحيث يستوعبها شِعْب ضيّق ، وقوله «بحرة» لأن شعاب الحِرار ضيقة وذلك لاستوائها ، فجري الماء فيها لا يكون من السرعة بحيث يقوى على توسيع مجراه ، لأن حجارتها تمسكه ، ولكن عزتهم بحرٌ واسع في صحراء منفهقة ، أي واسعة جداً .

ولا يشترط في الصحراء الاستواء ، ولا أن تكون مغطاة برمل ، ويبدو هذا الإسقاط واضحاً في قول خفاف بن ندبة يصف سيلاً :

يشقُّ الحِدابَ بالصحاري وينتحِي فراخَ العِقابِ بالحقاءِ المُحَلِّقِ(١٧٣)

فالسيل يشق الحداب والصحاري ، والحداب جمع حَدَب وهو ما غَلُظ من الأرض وارتفع ، وهذا يدل على أن الصحراء فيها حداب فهي ليست مستوية ، كما أنها ليست مغطاة برمل ، لأن الغَلَظَ كالجَلَدَ يكون تراباً وحجارة .

٦ - التجمعات البشرية

٦ - ١ مناطق الاستقرار الدائم

وقد عرف سكان بعض المناطق من جزيرة العرب حياة الاستقرار ، وذلك بسبب توافر الماء في تلك المناطق طَوال السنة ، بالإضافة إلى أسباب أخرى من شأنها أن تؤدي إلى الاستقرار ، وتنحصر التجمعات البشرية المستقرة في المناطق التالية :

أولاً : المنطقة من الطائف إلى عدن : وهي منطقة جبلية وعرة المسالك ، تتخللها مساحات لابأس بها من الأراضي التي تصلح للزراعة ، وتتعرض هذه المنطقة للأمطار الموسمية صيفاً ، كما أن أمطار الشتاء قد تنزل على أطرافها الشمالية .

ثانياً : الواحات ، وهي مناطق متفرقة في أنحاء شتى من الجزيرة ، يعتمد أهلها على مياه العيون والإحساء ، وقد اشتهرت بزراعة النخيل وأنواع من الحبوب معينة كالقمح والشعير ، وتزدحم هذه المناطق بالسكان في المواسم ، خاصة بعد موسم قطاف النخل ، وأشهر هذه الواحات على الإطلاق واحة خيبر . والعامل الأساسي في الاستقرار في هاتين البيئتين هو وفرة الماء .

ثالثاً : المناطق الساحلية وأشهرها سواحل اليمن وعُمان والبحرين بمفهومها القديم ، وقد اشتهر سكان هذه المناطق بصيد السمك ، واستخراج اللؤلؤ والاتجار مع البلدان المقابلة ، والهند ، والشرق الأقصى .

رابعاً : محطات القوافل التجارية والأسواق الدائمة ، حيث كانت قوافل عرب الجاهلية تجوب الجزيرة في كل اتجاه متنقلة بين أسواقها الداخلية ، وحاملة البضائع من الأسواق الخارجية وإليها ، وكثيراً ما كانت تتعرض قوافلهم لهجمات الأعراب ونفاد الزاد ، فاحتاطوا لذلك ، وأقاموا تلك المحطات على الطرق الرئيسية حيث كانوا يتزودون منها بالماء والغذاء ، ويستبدلون المرشدين ، فتحولت تلك المحطات إلى قرى أشهرها خيبر وتيماء والعلا ، إذ تشهد النقوش الثمودية التي عثر عليها في تلك

المنطقة بأن قوافل اليمنيين كانت تمر من هناك في طريقها من الشام وإليه . وعامل الاستقرار في هاتين المنطقتين اقتصادي كما ترى .

خامساً : مكة المكرمة ، ولا يعرف تاريخ محقق يرجع تأسيسها إليه ، وهي تقع في واد غير ذي زرع ، في الطرف الشمالي من تهامة . والعامل في التجمع البشري فيها مرجعه ديني دعمه من بعدُ عاملُ التجارة ، حيث كانت تقام على مقربة منها سوقا المِجنّة وذي المَجاز ، ثم إن ماء زمزم قد ساعد في ازدهارها قبل الإسلام وبعده .

وفيما يتعلق بأنحاء الجزيرة الأخرى التي تشكل سوادها الأعظم فهي تفتقر إلى العوامل سالفة الذكر ، حيث هي فلوات يُناصي بعضها بعضا ، ورمال وحرات متداخلة قلما تقع العين فيها على عشب أو نبات ، وقد امتثل أعراب تلك الفيافي لهذا القضاء ، واصطبروا لضغط الطبيعة ، وكما ينوء الحمل الثقيل بالمرء فيلجأ إلى حركات محاولاً بها أن يحفظ اتزانه ، فقد اعتمدوا الحركة الدائبة أساساً لحفظ حياتهم تحت ذلك الضغط الطبيعي .

٧ - الجهـــات

وقد فرض الترحال الدائب على العرب أن يتعرفوا الجهات ويُعَلّموا عليها ، وأن يقدروا المسافات ويرسموا الطرق خوفاً من الضلال الذي غالباً ما يؤدي إلى الهلاك . فإذا نزلوا بأرض ليس فيها ما يُستدل به ثبتوا علامات فيها ، وكانوا يستهدون بها إذا ساروا ، وأكثر فعلهم ذلك في المجاهل . قال أسماء بن خارجة :

بل رُبَّ خَرْقٍ لا أنيس بـــه نابي الصُّوى مُتحاملٍ سَهْبِ[١٧٤]

والصُّوى أعلام من حجارة تُنصب في الفيافي والمفاوز المجهولة ، يستدل بها على الطريق ، والواحدة صُوَّة . وقد علّموا على الجهات بما يَسْهُل عليهم إدراكه ، فعلّموا على الشرق بمشرق الشمس ، وعلى الغرب بمغربها ، وعلى الشمال بالفرقَدَين أو الجدي ليلاً ، وعلى الجنوب بنجم سهيل ، وغيرها من النجوم التي كان لهم فيها نظر دائم ، قال أعشى باهلة :

فَظَلْتُ مرتفقاً للنجمِ أرقبُـــه حرّانَ مُكتئباً لو يَنْفَعُ الحَـــذَر[١٧٥]

وقال ابن أحمر وقد ذكر فلاة :

يُهِـــلُّ بالفَرْقَدِ رُكبانُهـــا كمـــا يُهِلُّ الراكـبُ المُعْتَمِـــر[١٧٦]

فكأن هؤلاء قد ضلوا ، ثم لاح لهم الفرقد فعرفوا به سَمْت وجهتهم ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير كما يرفع المعتمر صوته بالتلبية ، وقال امرؤ القيس :

إذا ما الثّريا في السماءِ تعرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المفصل

فجئتُ وقد نَضّتْ لنومٍ ثيابَهـا لدى السِّتْرِ إلا لِبسة المتفضل[١٧٧]

حيث جعل من وقت تَعَرُّضِ الثريا في السماء موعدا لإتيانه منزل عشيقته .

وكانوا يشتقون من اسم المكان الذي يقصدونه فعلاً على وزن (أفْعَل أو فَعَّل أو فاعل) تغني دلالته عن ذكر اسم الجهة ، ومن ذلك قولهم لمن جاء تهامة أتهم أو غوّر ، ولمن أتى نجداً أنجد أو أجلس - من جَلْس ، اسمٌ لها - وشاءم أو يَمّن للذاهب قِبَلَ الشام أو اليمن ، قال متمم بن نويرة في يوم مخطط ، وكان قبل الإسلام :

يُهِلّونَ عُمّارا إذا ما تَغَوَّروا ولاقَوا قُرَيْشاً خبّروها فَأَنْجَدوا[١٧٨]

٨ - الطُّـــرُق

وقد كثر ذكر الطرق في أشعارهم ، فقدموا لنا العديد من الألفاظ الدالة على هذا المسمى بصفاته وأشكاله المختلفة ، ومن تلك الألفاظ السبيل في قول عبد الله بن عنمة :

لأُمّ الأرض ويــلٌ ما أجَنَّــتْ غداةَ أَضَرَّ بالحَسَنِ السبيــلُ[١٧٩]

وقال كعب بن سعد الغنوي :

ومُنْشَقٌّ أعطافِ القميصِ دعوتُه وقد سَدَّ جَوْزَ الليلِ كلُّ سبيلِ[١٨٠]

والدّرب ، وقد جاء لمعنى المدخل إلى بلاد غير العرب ، قال امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه وأيقنَ أنّا لاحقان بقيصرا[١٨١]

حيث المعنى أنهما قد تجاوزا بلاد العرب ، وأن الدرب الذي من ورائه بلاد الروم قد بدا ، فما إن رآه صاحبه حتى جعل يبكي ، لأنه أيقن أن الرحلة ستطول ، وقال آخر :

إذا جاوَزَتْ دَرْبَ المُجيزين ناقتي[١٨٢]

إذ يشير ظاهر الكلام أن الدرب مكان يُجاز ، وليس سبيلاً يعبر ، غير أن الشائع في الدرب أنه الطريق يسلك ، وبين هذا المعنى وسابقه علاقة ظاهرة تمثل في أنهما يصلان بين طرفين ، ولقد باد المعنى الأول ، ولا يزال المعنى الثاني شائعاً في الفصحى والعامية .

ومن تلك الألفاظ السِّكَّة ، وكان ورودها في أشعارهم قليلا ، وقد زاد

استعمالها في كتب الرحّالة والجغرافيين في القرن الثالث وما بعده ، ولا تزال الكلمة شائعة حتى اليوم في اللهجات العامية وبخاصة في مصر . قال امرؤ القيس :

إذا ما ازدحمنا على سِكَّـــةٍ سبقتُ الفُرانِقَ سبْقاً بعيدا(١٨٣)

أي : إذا ما ازدحمنا على طريق ، جرت بي مطيتي فسبقت الرسول مسافة طويلة .

واللاحب ، الطريق ، فاعل من لَحَبَ بمعنى مفعول ، لأن الحوافر لَحَبَتْهُ أي أَثَّرَتْ فيه فصارت فيه طرائقُ وآثارٌ بيّنة ، ثم استُعمل لكل طريق بيِّنٍ وخفيّ ، ومن ذلك قول خفاف :

رَبَأْتُ وحُرجوج جَهَدْتُ رُواحَها على لاحبٍ مثلِ الحَصيرِ المُشَقَّقِ(١٨٤)

وقد يكون اللاحب طامساً متروكاً ، قال امرؤ القيس :

على لاحبٍ لا يُهتدى بمنارِه . . .(١٨٥)

أي لا علم فيه ولا منار فيهتدي به ، والطريق قد يكون في الرمل فهو الخل وقد يكون تحت الأرض فهو نفق وقد يكون في الجبل ، وقد يكون صغيراً ضيقاً أو واسعاً أو ممهداً ، فخصوا كلا منها بلفظٍ يدل عليه ، إمعاناً منهم في التدقيق فالثَّنِيَّة ، والنَّقْب ، والعَقَبة ، والكَئُود ، والقعقاع ، والمَخْرِم ، والنَّجْد أسماء لما كان وعراً من الطرق السالكة عبر الجبال ، وقد كانوا يعبّرون بسلكها عن التعرض للصعاب وتحملها ، ويفاخرون بذلك ، لأنه يتطلب جهداً كبيراً . قال سُحَيْم بن وَثيل :

أنا ابنُ جلا وطلاَّعُ الثنايـــا متى أضَعِ العمامةَ تعرفونـــي(١٨٦)

فقد كنى بطلوع الثّنايا عن أنه نافذ في الأمور وذو جَلَد حين يشتد البأس . وقال عروة بن الورد في النقب :

يُناقِلْنَ بالشُّمْطِ الكِرامِ أُولي النُّهى نِقابَ الحجازِ في السَّريحِ المُسَيَّرِ[١٨٧]

والحجازيون يطلقون على الطريق في الجبل لفظ النِّقب (حتى يومنا هذا) ، ومن ذلك نقب العسل جنوب شرق تنومة ببلاد بني شهر . وقال عِلباء ابن أرقم في المَخْرِم :

يُمَشّي كأَنْ لا حَيَّ بالجِزْعِ غيْرَه ويعلو جراثيم المخارم والأكم[١٨٨]

ففي المخارم جراثيم تُعْلى كتلك التي تكون في الإكام ، وهي التلال الصغيرة ، وقال حسان مفاخراً بقومه :

. . . والجائبين مَخارِمَ الأَطْوادِ[١٨٩]

والمُعَبّد ، هو الطريق الممهد البعيد ، وهذا بادٍ في قول خفاف :

ومعبَّدٍ بَيْضُ القَطا بجُنُوبِه ومن النواعِجِ رمّةٌ وَصَليبُ

نفرت آمِنَ طيرِهِ وسباعِهِ ببُغامِ مجذامِ الرُّواحِ خَبوبُ[١٩٠]

فهذا الطريق ممتد في الخلاء مما جعل القطا يبيض في جانبيه ، والسباع والطير تأمن الناس ، فاتخذت فيما أحدق به مساكنها ، وهو طويل تضنى المطي به ، ويهلك بعضُها قبل بلوغ المقاصد ، فتلك رفاتها متناثرة بين يديه .

والمَحَجّ والمَحَجّة وهما الطريق الواضح المبين ، قال امرؤ القيس :

ومن الطريق جائرٌ وهدى قَصْدُ المَحَجِّ ومنه ذو دَخَلِ[١٩١]

وقوله «قصد المحج» يعني أنه سالك بيّن لاخفاء فيه ، ويروى (قصْدُ

السبيل) وهما سواء . والمَيْثاء ، وهي الطريق الأعظم إلى الماء ، وتطلق على مسيل الوادي إذا كان عريضاً ، قال امرؤ القيس :

وتحسِب سَلمى لا تزال تَرى طَلاً من الوَحْشِ أو بَيْضاً بَمَيْثاءَ مِحلالِ[١٩٢]

والشَّرَك ، وهو الطريق الذي لا يستجمع لك ، وقد ينقطع ، لكنه لا يخفى عليك ، وبناتُ النَّيْسَبِ وهي طرق صغار تتشعب من الطريق الأعظم ، وقدو رد هذان اللفظان في قول سَوّار بن المُضَرَّب :

تموتُ بناتُ نَيْسَبِها ويغبى على رُكبانِها شَرَكُ المِتانِ[١٩٣]

فهذه الطريق طامسة فروعها ، بل إنها لتغبى (تخفى) على الركبان ، وإضافتها للمتان - وهي الظهور الغليظة من الأرض - يجعل خفاء الطريق أكثر من خفائها فيما لو أضيفت إلى دَهَس أو أرض طينية ، وذلك لأن الأقدام والحوافر قلّما تؤثر في المتون لصلابتها ، فإذا ما هبت ريحٌ أو نزل مطر فإن الآثار فيها تمحى ، فما بالك في فروعها؟ إنها لتموت حقاً .

٩ - بدء الخلق

وقد كان لعرب الجاهلية تصور لبدء الخليقة ، سواء انتهى إليهم ذلك التصور عن طريق أهل الكتاب من النصارى واليهود أو عن طريق أتباع الديانة الحنيفية ، التي هي ملة إبراهيم عليه السلام ، وذلك أن منهم رجالاً كانوا يدينون بها كورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت ، وقد حفظتْ كتب التراث قسطاً من أشعارهم التي تقفنا على ذلك التصور ، قال عدي بن زيد العبادي ، وكان نصرانياً يقرأ الكتب :

اسمعْ حديثاً لكي يوماً تجاوبُهُ عن ظهرِ غيبٍ إذا ما سائل سألا

أن كيف أبدى إله الخلقِ نعمتَـه فينـا ، وعرّفنـا آياتـه الأُوَلا
كانت رياحاً ومـاءً ذا عُرانيـة وظُلمةً لـم يَدَعْ فَتْقاً ولا خَلَلا
فَأمَرَ الظُّلْمَةَ السوداءَ فانكشفـت وعَزَل الماءَ عمّا كان قد شغـلا
وَبَسَّط الأرضَ بَسْطاً ثم قدرهـا تحت السماء سواءً مثل ما فعـلا
وجعل الشمس مصيراً لاخفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستـة أيـام خلائقـه وكان آخر شيءٍ صوّر الرّجُلا(١٩٤)

ويتبادر للذهن عند قراءة هذه الأبيات أنها قد تكون منحولة ، وذلك لما فيها من معان إسلامية ، غير أن ذلك لا يقوم دليلاً على نحلها ، لأن مثل هذه المعاني قد وردت في الكتب السماوية الأخرى .

وقال الطِّرِمّاح بن حكيم يفاخر بقبيلته طيء :

لنا المُلْكُ من عهدِ الحجارة رطبة وعهدُ الصفا باللينِ من أقدمِ العهد(١٩٥)

إذ يتضمن إشارة واضحة إلى عصر جيولوجي كانت فيه الحجارة لينة ، وهذه وإن كانت غير حقيقية فيما نعلم ، إلا أن العرب شاهدوا صهير البراكين أو ما يعرف بـ (Lava) قبل أن يبرد فيستحيل حجارة وصخوراً .

خـاتمـــة

نتبين مما مضى وهو قليل من كثير يمكن إثباته أن أدب الجاهلية قد جاء حافلاً بإشارات مختلفة إلى معظم ظواهر البيئة الطبيعية والفلك ، وقد عبّر الشعراء عن هذه الظواهر بأساليب مختلفة فأبدعوا في ذلك ، وبلغوا حداً مرموقاً يجعل شعرهم مرجعاً أساسياً لدراسة تلك الظواهر في ذلك العصر ، وللتعرف على أثرها في حياتهم وتصورهم لها ، ولقد قدموا ذلك في لوحات أدبية دبجتها قرائحهم بألفاظ واضحة الدلالة مغطين إياها تغطية تامة ، مفرقين في ذلك بين المسميات التي تتجمع في نوع واحد ، كأنواع الغيوم والمطر ، فبرزت مجموعات من الألفاظ لا نجدها في لغة غيرها ، وقد استقل عدد كبير منها اليوم بدلالات اصطلاحية محددة .

وعلى الرغم من أن تناولهم الظواهر الطبيعية لم يكن تناولاً علمياً في معظمه ، إلا أن ما قدموه من معلومات صحيح إلى حد كبير ، ويعود الفضل في ذلك للملاحظة والتجربة اللتين كانتا أهم ما امتازوا به .

ولكن !!!!!

ما إن نزل القرآن الكريم حتى بدأ التغير يدب إلى مختلف أوجه الحياة العربية بشكل جذري ، فنُسفت قيم ومفاهيم ، وجدّ غيرها ، ولعل أبرز ما وجه القرآن أنظار الناس إليه ، ودعاهم إلى التبصر فيه هو هذا الكون الواسع من بيئة طبيعية وفلك وما يشتملان عليه من مخلوقات وآيات . قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ والنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ، وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١٩٦] ، فقد أفرد الرازي فصلاً طويلاً لتفسير هذه الآية ، لبيان كيفية الاستدلال بالأحوال السماوية على وجود الصانع[١٩٧] ، وبهذا يكون القرآن الكريم مؤكداً لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الإنسان وبيئته في الأرض والسماء من صبغة طبيعية فطرية تقوم على التكامل والتدبر فيها وصولاً إلى وجود الخالق عز وجل .

وما إن بدأ المسلمون في الانتشار في بيئات جديدة ، وراحوا يحتكون بالشعوب الأخرى ، حتى ابتدأت مرحلة حضارية جديدة ، حيث عرفوا أشياء جديدة من ظواهر الطبيعة ومظاهرها ، وترجموا ما توصلت إليه الشعوب الأخرى ، ولاقحوا بين معارفهم الأصلية وما اكتسبوه من فيض القرآن الكريم وبين ما أخذوه من البيئات الجديدة ، فإذا بهم يضعون أساس النهضة العلمية في القرون الوسطى ليس للمسلمين وحسب ، ولكن للعالم أجمع ، حيث إن جذور التقدم الذي نشهده اليوم تمتد في تربة تلك القرون . وهذه دراسة طويلة تحتاج إلى عدة أبحاث آمل أن أستمر في إعدادها .

المصـادر والهوامـش

١ - الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ط السعادة بمصر ١٩٥٣ ، ص ٢٠٥ .

٢ - ولفنسون - إسرائيل تاريخ اللغات السامية ، ط مصر ، سنة ١٩٢٥ ص ٢٥٠ .

٣ - بروكلمان - كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة منير بعلبكي ، بيروت ، ١٩٧٤م ١٠/١ .

٤ - ابن فارس - أحمد ، معجم مقاييس اللغة ، مصر عام ١٣٦١ هـ مادة (أله) (سيمت بذلك لأن قوماً كانوا يعبدونها) .

٥ - ابن منظور ، نثار الأزهار ، القسطنطينية ، عام ١٢٩٨ هـ ، ص ٥٧ . وانظر بحثنا «القمر وأسماؤه» في العدد المزدوج ٢٣ ،٢٤ من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

٦ - الأنصاري - أبو زيد ، النوادر ، بيروت عام ١٩٦٧م ، ص ١١١ ، ١١٢ وهلال ما صح إذا نقص .

٧ - امرؤ القيس الكندي ، ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الكويت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٨ .

٨ - وهي زحل والمريخ والمشتري وعطارد والزهرة .

٩ - ولهاوزن ، آثار ديانات الجاهلية ، برلين ١٨٩٧ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

١٠ - نفس المرجع ص ٢١٠ .

١١ - نلينو - كارلو ، علم الفلك عند العرب ، القاهرة ، ص ١٠٦ .

١٢ - الطرابلسي - إبراهيم بن السيد ، فرائد اللآل في شرح مجمع الأمثال ، بيروت ، ١٣١٢ هـ ، ٢٥١/١ .

١٣ - طرفة بن العبد ، طبعة روسية ، عام ١٩٠٩ ، ص ٦٧ ، وقد ترى بعض النجوم بالعين المجردة نهاراً . وانظر بحثنا «الأجرام السماوية» العدد ٢٧ من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني .

١٤ - ابن بنين - سليمان ، اتفاق المباني وافتراق واقتران المعاني ، تحقيق الباحث ، دار عمار ، عمان ، ١٩٨٥ ، ص ٢٢٨ .

١٥ - الأصمعي - عبد الملك ، الأصمعيات ، تحقيق عبد السلام هارون وزميله ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٨٩ .

١٦ - العسقلاني - ابن حجر ، فتح الباري - شرح صحيح البخاري ، منشورات لجنة إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ٤٣٤/٢ .

١٧ - ابن قتيبة - أبو محمد ، الأنواء في مواسم العرب ، حيدر أباد ، ١٩٥٦ ، ص ١١٠ .

١٨ - البيروني - أبو الريحان ، الآثار الباقية عن الأمم الخالية ، تحقيق إدوارد سخاو ، لايبزج ، ١٩٢٤ ، ص٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وابن قتيبة - الأنواء ، ص ٨٧ لخامسة مكان لثالثة .

١٩ - المرجع نفسه وابن قتيبة ٨٧ .

٢٠ - ابن قتيبة ص٢ ، أما البيروني ٣٤١ (بنو مارية) .

٢١ -أبو حنيفة ، المسند ، الآستانة عام ١٣٠٩ ، ص ٦٩ والعسقلاني ٤٣٧/٢ .

٢٢ - الجاحظ ، البيان والتبيين ، مصر ١٣١٣ هـ ١١٩/١ والميداني - مجمع الأمثال ، مصر ١٣١٠ هـ ٧٤/١ .

٢٣ - التبريزي ، شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ، بولاق/مصر ، ١٢٩٦ هـ ١٥٣/٣ .

٢٤ - نلينو - ملحق ٥ ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

٢٥ - المحرم بشكل خاص .

٢٦ - ابو معشر البلخي على سبيل المثال .

٢٧ - نلينو ٩٤,٩٣ ، وهذا في أن النسيء هو الكبس وليس التأخير .

٢٨ - الطبري ، تاريخ الطبري ، طبعة اوروبة ، ٩٣/١٠ .

٢٩ - البيروني ، ص ١٢ .

٣٠ - أحد عشر يوماً تقريباً .

٣١ - وهذا أمر مألوف في التقويم القبطي ، حيث يضيفون شهراً ثالث عشر بعد شهر «مسرى» هو «أبو غمنا» ، وانظر البيروني ص ٤٩ .

٣٢ - بعد ٣٦ سنة .

٣٣ - الرازي ، التفسير الكبير ، ط مصر عام ١٣٠٨ هـ ٤٤٦/٤ .

٣٤ - المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٣٥ - نلينو ص ٨٣ .

٣٦ - البيروني ، ص ٦٠ .

٣٧ - ينسب هذا البيت لأكثم بن صيفي ولسعد بن مالك ين ضبيعة ، انظر شرح المفضليات (طبعة لندن) عام ١٩٢١ ، ص ٢٥٢ ، ٥٩٢ ، ٨٢٢ ونوادر أبي مسحل الأعرابي (دمشق) عام ١٩٦١م ،ص ٣٠٠ .

٣٨ - أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، (ط بولاق) ، ٦/١٣ ، ١٩٦٠ .

٣٩ - الدينوري - أبو حنيفة ، الأخبار الطوال ، طبعة القاهرة ، عام ١٩٦٠م ، سلسلة تراثنا ، ص ١٦ .

٤٠ - سليمان حزين ،

Changement Historique de Climat et du Paysage de L'Arabia du Sud

مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٣٥ ، المجلد ١ ، ص ٢٣ ، وانظر تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت عام ١٩٣٦

المنشور بالمجلة نفسها ، المجلد الرابع ، ١٩٧/٢ . وقد أعانني في فهم النصوص الفرنسية السيدة أسماء محاريق .

٤١ – جون هامرتن ، تاريخ العالم ، (الترجمة العربية) ، دار المعارف ، مصر ١٩٤٩ ، ص ٨٤ .

٤٢ – Semple, Influence of Geographic - Environment, London 1938, P 490.

٤٣ – المصدر نفسه ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

٤٤ – Encyclopedia of Islam, Art Arabia, P. 375

٤٥ – الأنصاري ، أبو زيد ، كتاب المطر ، ضمن البلغة في شذور اللغة ، بيروت ، عام ١٨٩٨م . ص ١١٠ ، وابن سيده – المخصص ٤٥٩/٩ .

٤٦ – امرؤ القيس (مصدر سابق) ، ص ٢٤ .

٤٧ – عروة بن الورد ، ديوانه ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٣١ .

٤٨ – ابن قتيبة – الأنواء ، ص ١٧٧ .

٤٩ – المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٥٠ – جون هامرتن (مصدر سابق) ، ص ٨٤ .

٥١ – Forster, Vol. 1,P. 347.

٥٢ – نوعان من السحب مطيران ، وممن تسمى بالمزنة مصغرة قبيلة مزينة ، ومحالها قرب المدينة المنورة .

٥٣ – الأصمعي (مصدر سابق) ص ١٨٢ .

٥٤ – امرؤ القيس ٩١ ، والفنا عنب الثعلب ، شبه به الكلأ في ريه ، وحنان سحاب راعد .

٥٥ – طرفة بن العبد ، ص ٧٢ .

٥٦ – امرؤ القيس ، ١٧٠ .

٥٧ – المصدر نفسه ، ٢٥ .

٥٨ - القرشي ، أبو زيد ، جمهرة أشعار العرب ، القاهرة ، بولاق ١٣١٨ هـ ، بيروت ، ص ٢٠٨ .

٥٩ - امرؤ القيس ص ١٤٤ ،وأشحذت : أقعلت ، تشتكر : يكثر ماؤها .

٦٠ - القالي - أبو علي - الأمالي ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ١٨٢/٢ .

٦١ - ابن الدمينة - عبد الله ، ديوانه ، القاهرة ١٣٣٧ هـ ، ص ٢٩ .

٦٢ - المسعودي - التنبيه والإشراف ، مطبعة بريل عام ١٩٦٧م ، ص ١٨ .

٦٣ - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

٦٤ - الأصمعي ، ص ١٨١ .

٦٥ - القرشي ، ص ١٣٥ .

٦٦ - المصدر نفسه ، ص ٢١٥ .

٦٧ - ابن قتيبة ، ص ١٦٥ .

٦٨ - المرزوقي ، الأزمنة والأمكنة ، حيدر آباد الدكن ١٣٣٢ هـ ٣٤٣/٢ .

٦٩ - ابن الأنباري ، شرح المفضليات ، لندن ص ٧٧١ .

٧٠ - ابن قتيبة ، ص ١٦١ .

٧١ - امرؤ القيس ، ص ٢٧٤ .

٧٢ - عروة بن الورد ، ص ٥٦ .

٧٣ - الأصمعي ، ص ٢١٨ ، والنشاص : سحاب مرتفع جداً ، والسجم : الواكف .

٧٤ - Zwemer, Arabia, The Cradle of Islam, U.S.A., 1912, P. 20.

٧٥ - امرؤ القيس ، ص ٢٨٤ .

٧٦ - نفس المصدر ، ص ٢٨٥ ، وفيحان بلد بعينه ، والقادمان : الخلفان الآخران ، يعني أن وليدها لم يرضعه .

٧٧ – O'Leary, Arabia Before Mohammed, London, 1972, P. 8.

٧٨ – حسان بن ثابت ، ديوانه ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ ، ص ١٥ .

٧٩ – طرفة بن العبد ، ص ٦٧ .

٨٠ – ابن الشجري ، الحماسة ، حيدر آباد ، عام ١٣٤٥ هـ ، رقم ٨ .

٨١ – الأصمعي ، ص ١٨٠ .

٨٢ – الأنصاري ، ص ٩١ .

٨٣ – المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

٨٤ – الأصمعي ، ص ١٨٧ .

٨٥ – ياقوت الحموي ، معجم البلدان (طبعة أوربة عام ١٨٦٧م) ، ٣٠٢/٦ .

٨٦ – امرؤ القيس ، ص ٢٨٥ .

٨٧ – المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

٨٨ – القالي ، ٢٨٢/١ .

٨٩ – الأصمعي ، ص ٣٠ .

٩٠ – المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

٩١ – امرؤ القيس ، ص ٤٦ .

٩٢ – ابن الشجري ، رقم ٣ .

٩٣ – حسان ، ص ١٩ .

٩٤ – أوس بن حجر ، ديوانه ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٢٢ .

٩٥ – امرؤ القيس ، ص ٢١٨ .

٩٦ – الأصمعي ، ص ١٢٢ ، والأفز القفز ، الفدر والقراهب هي الوعول المسنة .

٩٧ – حماسة البحتري ، (المطبعة التجارية بمصر) ، ص ١٣ .

٩٨ – المرزباني ، معجم الشعراء ، ص ٣٤٤ .

٩٩ - ابن دريد ، الاشتقاق ، المطبعة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٢٠٠ ويروى «منا ومنهم مكان» « وبكل ريع» .

١٠٠ - ابن فارس ، ٤٧٠/١ ، ويروى «الحق» مكان «الخير» .

١٠١ - ياقوت ، ٧٤٨/٤ ، ٧٥٠ .

١٠٢ - انظر هـ ٦٠ في ما سبق .

١٠٣ - الهمداني ، ص ٢٠٥ .

١٠٤ - امرؤ القيس ، ص ٢١٨ .

١٠٥ - الأصمعي . ص ١٨٠ .

١٠٦ - امرؤ القيس ١٨ .

١٠٧ - القالي ٧١/٢ .

١٠٨ - امرؤ القيس ، ص ٧٥ .

١٠٩ - الأصمعي ، ص ٥٦ .

١١٠ - امرؤ القيس ، ص ٤٤ .

١١١ - المصدر نفسه ص ٢٨٤ ، والمنفضخ المتسع ، والقي : القفر الذي ليس به أحد ، والسهوب الصحاري المستوية الواسعة ، والمتون الظهور جمع ظهر ومتن .

١١٢ - الأصمعي ١٨٠ ، والقعقاع الطريق ، وغارب الأجزل : أعلى مقدم سنام بعير قطعة القتب .

١١٣ - امرؤ القيس ، ص ١٧٧ .

١١٤ - ابن منظور ، لسان العرب ، ٣٥٢/٣ . ١٨٦/٥ ، وابن سيده ٩٦/٦ ، والجبار : السيد العظيم ، والبيض الغدران ، للونها ، والصوحان : جانبا الوادي والجبل .

١١٥ - الأنصاري ، ص ٣٨ .

١١٦ - الهمداني ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

١١٧ - امرؤ القيس ، ص ٧٩ .

١١٨ - الأصمعي ، ص ٢٨ ، واللهوب جمع لهب وهو الموضع السحيق بين الجبال .

١١٩ - المصدر نفسه والصفحة نفسها .

١٢٠ - المصدر نفسه ، ص ١٩٠ ، والصوار القطيع من بقر الوحش .

١٢١ - الدينوري (مصدر سابق) ، ص ٦١ .

١٢٢ - المسعودي ، ص ٢٠٢ .

١٢٣ - ياقوت ، ٢٦١/٦ .

١٢٤ - الطبري ، ٢٩٨/١ .

١٢٥ - ياقوت ، ٢٥٩/٣ .

١٢٦ - المصدر نفسه ، ٢٦٠/٣ .

١٢٧ - الطبري ، ٢٢١/٣ ، ٩٥٩/٢ ، والهمداني ٢٠٥ .

١٢٨ - ابن الأنباري ، ص ٢٤٥ ، ٤١٥ .

١٢٩ - طرفة ، ص ٦٢ .

١٣٠ - O'Leary, P. 6.

١٣١ - Herodotus, Vol. , 1. P. 214 Bertram Thomas, The Arabs P. 350

١٣٢ - Brockelmaan, Precis de Linguistique Semitique, P. 10.

وانظر أيضاً Sylces, A History of Exploration, London, 1949. P. 48.

١٣٣ - Moritz, P. 21.

١٣٤ - عرام بن الأصبغ السلمي ، أسماء جبال تهامة وسكانها ،القاهرة ، عام ١٣٧٣ هـ ص ٣٣ .

١٣٥ - ابن دريد ، جمهرة اللغة ، حيدر آباد الدكن عام ١٣٤٥ هـ ١٧٣/٢ ، ١٧٤ .

١٣٦ - المصدر نفسه ٢٣٤/٣ .

١٣٧ - الجاحظ - الحيوان ، تحقيق د . يحيى الشامي ، منشورات دار الهلال ومكتبتها ، بيروت ١٩٨٦ . ج٤ ص ١٢٨ .

١٣٨ - ابن الأنباري ، المفضلية ، ١١٧ البيت ٧ .

١٣٩ - أبو الفرج الأصفهاني ، ١٥٩/٩ ، ١٥٤/١٨ .

١٤٠ - ابن دريد ٢٠١/٢ .

١٤١ - الأصمعي ، ٦٣ .

١٤٢ - الأنصاري ٥٧ .

١٤٣ - البحتري ، الحماسة ، ص ٦٢ .

١٤٤ - الهمداني ١٥٥ .

١٤٥ - ابن منظور ، اللسان (نملفق) .

١٤٦ - سورة سبأ ، الآية ١٥ .

١٤٧ - Zwemer, Arabia, The Cradle of Islam, P. 45

١٤٨ - سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ .

١٤٩ - ابن منظور ، اللسان (ركب ، ثمل) .

١٥٠ - عروة بن الورد ، ص ٨٤ .

١٥١ - الآمدي ، المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١١٠ .

١٥٢ - الأصمعي ، ص ١٠٤ .

١٥٣ - المصدر نفسه ، ص ١٩٠ ، ومنتهى الطلب ٢٠٤/٢ .

١٥٤ - الأصمعي ص ٦٣ .

١٥٥ - سورة الرحمن ، الآية ٦٤ .

١٥٦ - ياقوت ١٥٤/٣ .

١٥٧ - امرؤ القيس ٤٣ .

١٥٨ - ابن الأنباري ، المفضلية ١١٥ ، البيت ٤ .

١٥٩ - ابن دريد ، الجمهرة ، ١٨٦/٢ .

١٦٠ - الهمداني ١٥٦ .

١٦١ - طرفة ، ص ٣١ .

١٦٢ - الأصمعي ، ص ٧٨ .

١٦٣ - المصدر نفسه ١٨٧ .

١٦٤ - مادة غيل .

١٦٥ - المادة نفسها .

١٦٦ - الأصمعي ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

١٦٧ - امرؤ القيس ، ص ٣١٥ ، والمعلنكس : المظلم ، والجأب والجفر هو الضخم الغليظ .

١٦٨ - ياقوت وعنه صاحب المراصد (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) ، طبعة لايدن ٣ / ٩ .

١٦٩ - الأصمعي ، ص ٧٧ ، والنهنهة : الكف والردع .

١٧٠ - امرؤ القيس ٢٩٣ .

١٧١ - الأنصاري ، ص ٩٩ .

١٧٢ - الأصمعي ٨٢ .

١٧٣ - المصدر نفسه ٢٦ .

١٧٤ - الأصمعي ٤٩ .

١٧٥ - القرشي القصيدة رقم ٣١ .

١٧٦ - ابن قتيبة ، ص ٢ .

١٧٧ - امرؤ القيس ، ص ١٤ .

١٧٨ - الأصمعي ، ص ١٩٢ .

١٧٩ - ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ١٢٣ والقرشي ص ١٢٣ وياقوت ٢٧٨/٣ .

١٨٠ - ابن الشجري ، ٢١٢ .

١٨١ - امرؤ القيس ٦٥ .

١٨٢ - الأنصاري ، ص ٤٥ .

١٨٣ - امرؤ القيس ، ص ٢٥٢ .

١٨٤ - الأصمعي ، ص ١١٨ .

١٨٥ - امرؤ القيس ، ص ٦٦ .

١٨٦ - الأصمعي ، ص٥ ، والبكري سمط اللآل ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٥٥٨ .

١٨٧ - عروة بن الورد ، ص ٩٣ .

١٨٨ - الأصمعي ، ١٥٨ ، والجراثيم ، الأماكن الناتئة بجانب الجبل والوادي .

١٨٩ - حسان ، ص ٣٣ .

١٩٠ - الأصمعي ، ٢٧ .

١٩١ - امرؤ القيس ٢٣٨ .

١٩٢ - المصدر نفسه ٢٨ .

١٩٣ - الغالي ٢٨١/١ .

١٩٤ - المقدسي ، البدء والتاريخ ، طبعة باريس بعناية Huart ١٥١/١ .

١٩٥ - الطرماح بن حكيم ، ديوانه ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ، عام ١٩٦٨م ص ٣٦٤ .

١٩٦ - سورة البقرة الآية ١٦٤ .

١٩٧ - الرازي ، ٦٣/٢ .